اعتراف تولستوي وفلسفته

بقلم

الارشمندريت انطونيوس بشير
صاحب مجلة الخالدات

عني بنشره وتصحيحه

الشيخ يوسف توما البستاني
صاحب مكتبة العرب
بالفجالة بمصر

١٩٣٠

مطبعة العرب للبستاني
بالفجالة بمصر

مطبوعات عصرية قيمة

تطلب من مكتبة العرب لصاحبها الشيخ يوسف توما البستاني بالفجالة

وهي كتب أدبية فنية مختلفة جديدة يكل أديب أن لا تخلو مكتبته م

ص	
٥	كتاب المواكب بالرسوم لجبران خليل جبران
١٥	كتاب البدائع والطرائف لجبران خليل جبران
١٠	كلمات جبران خليل جبران
٥	رمل وزبد لجبران خليل جبران
٨	النبي لجبران خليل جبران
١٥	دمعة وابتسامة لجبران طبع أميركا
١٠	مذكرات سفير اميركا في الاستانة
٤	رسائل من اعماق السجون لاوسكار وايلد
١٥	مذكرات المارشال هندنبرج جزآن
٢	بيضة الفرخة وهو بحث مفيد لذيذ
٤	تاريخ لودندرف القائد الالماني
٨٠	دائرة المعارف للبستاني يوجد منها الجزء الاول والسابع والثامن والحادي عشر
٨	روح الاجتماع تعريب فتحي باشا زغلول

ص	
٣	صياد النساء اوي ا الفرنساوي لاندرو
٨	رسبوتين الراهب المحتال اسعد خليل داغر
٥	تاريخ غليوم الثاني امبر المانيا بقلم كريم ثابت
١٢	المرشد الظريف في طالع ا اللطيف
٨	القوة الفكرية في المغنطيسية ا
٥	الرحلة السورية في الحرب الع
١٢	نوادر الحرب العظمى قصص واقعية
١٥	مذكرات مدام اسكويث تع اسعد خليل داغر
١٠	ماك سويني الارلندي تا ووصف سجنه
٣٠	الساق على الساق في ماهو الفا
١٠	رسائل اليازجي للشيخ ابر اليازجي ويليها ديوانه

اعتراف تولستوي

بقلم

الارشمندريت انطونيوس بشير فهميه

صاحب مجلة الخالدات

عني بنشره وتصحيحه

الشيخ يوسف توما البستاني

صاحب مكتبة العرب

بالفجالة بمصر

١٩٣٠

مطبعة العرب للبستاني

بالفجالة بمصر

اهداء الكتاب

الى كل من يحب الحق ، و يعرف الحق ، ولا يخاف في سبيل الحق لومة لائم

ا . ب .

كلمة المترجم

درس حياة العظماء خير الدروس التي تعود على صاحبها بعميم الفوائد ، وخصوصاً اذا كانت حياة العظيم مكتوبة بقلمه. وفي رأي العارفين ان أفضل ما كتبه تولستوي ، الفيلسوف الروسي الذائع الشهرة ، في تاريخ حياته وفلسفة الحياة عموما هو الفصول التي اطلق عليها اسم « اعترافي ، دياتني ، انجيلي. » وقد رأيت أن انقلها الى العربية رغبة في اطلاع ابناء قومي على ما فيها من الحقائق الجميلة والدروس النافعة مبتدئاً بالكتاب الاول الذي سميته « اعتراف تولستوي » راجياً ان يقرأه الادباء بما يستحقه من العناية .

كتب تولستوي اعترافه هذا سنة ١٨٧٩ فلم تسمح السلطة بطبعه في روسيا ولذلك طبع في جنيف سويسرا . ومثله الكتاب الثاني والكتاب الثالث . وقد ترجمت هذه الكتب الى جميع اللغات الحية ونحن ، بعد ان ترجمنا الجزء الاول منها وهو « اعتراف تولستوي » هذا نشتغل اليوم بترجمة الجزئين الآخرين وهما « ديانة تولستوي » و « انجيل تولستوي » وسنجعلهما من مجلدات الخالدات في اعوامها المقبلة ان شاء الله .

واني منذ الآن . الفت انظار القراء الى حقيقة مهمة قبل قراءة هذا الاعتراف : وهي ان تولستوي يصف فيه أيام كفره المظلمة

ايجعلها مقدمة لايام ايمانه المنيرة التي سيطالعها القراء في « ديانة تولستوي » و « انجيل تولستوي »

وهنالك حقيقة أخرى أود ان أقدمها للقارىء الاديب قبل اطلاعه على هذه الكتب وهي ان ترجمتي لمثل هذه المؤلفات لا تقيدني ولا بصورة من الصور بافكار المؤلف وآرائه . فهو حر في معتقده وانا حر في معتقدي ولكنني من المعجبين باسلوبه الكتابي الخالد ، فهو وان كان بعيداً عن الرغبة في فصاحة الكلام ، وهذا ظاهر من تكراره لكلمات كثيرة في الصفحة الواحدة بل وفي العبارة الواحدة كما يرى القارىء في هذا الاعتراف ، فان الفكر رائده والمنطق السديد رفيقه في جميع ما يكتب .

الارشمندريت

انطونيوس بشير

اميركا الشمالية

لسنة ١٩٢٩

الفصل الاول

قد تنصرت وقبلت تهذيبي الديني في الكنيسة الارثوذكسية وتعلمت ايمانها في طفولتي وصبوتي وشبابي . بيد انني لم ابلغ الثامنة عشرة من عمري حتى تركت الجامعة في السنة الثانية من دخولي اليها وحررت نفسي من كل ضروب العبادة والايمان التي تعلمته .

واني بما لا أزال اذكره عن تلك الايام أصرح اني بالحقيقة لم اكن في ما مضى من عمري راغباً في الايمان بعقائد الكنيسة . ولكنني كنت اثق بالايمان الذي يعتقد به الشيوخ من انسبائي ولكن هذه الثقة نفسها لم تكن راسخة في ذهني .

اذكر مرة عندما كنت في الثانية عشرة من العمر ان ولداً زارنا وقضى معنا نهار الاحد يحدثنا بالاختراع الاخير الذي اهتدت اليه مدرسته . وخلاصة هذا الاختراع ان المدرسة وجدت بعد البحث ان الله غير موجود وان كل التعاليم عن وجوده هي من مخترعات الناس (وكان هذا في سنة ١٨٣٨) . وقد أخذ هذا الخبر بمجامع قلوب أخوتي وأذنوا لي ان انخرط معهم في البحث وهكذا قبلنا كلنا هذه النظرية الجذابة التي قد تكون حقيقة نافذة .

وأذكر أيضاً ان شقيقي الاكبر ديمتري الذي كان إذ ذاك طالباً في الجامعة عندما حملته طبيعته الحساسة الى الاستسلام للايمان والصلاة بحرارة قلب والذهاب الى الكنيسة في كل صباح ومساء

والتمسك بالصيامات والحياة الادبية الفضلى في عقيدته كنا باجمعنا نحن الصغار وكثير غيرنا من الكبار نسخر به حتى اننا اطلقنا عليه في آخر الامر لقب السيد نوح .

واذكر جيداً ان موسين بوشكين ، ناظر جامعة كازان في ذلك الحين ، دعانا الى حفلة راقصة ، وبذل جهده ليقنع أخي ديمتري ، الذي رفض الدعوة بحجة ان الرقص مناف للآداب ، والناظر يؤكد له ان داود الملك نفسه رقص أمام التابوت .

وقد عملت كل هذه الحوادث على قيادتي أخيراً الى ان الواجب يقضي عليّ ان أتعلم عقائد كنيستي ، واذهب الى صلواتها ولكن الاهتمام الزائد بالعمل بها لم يكن ضرورياً في عقيدتي .

ومما أذكره انني قرأت فولتر وانا في فجر شبابي ولم انفر من تهكماته بل كنت استلذ مطالعتها واحبها .

وقد رافقني هذا النفور من الدين ، كما يرافقني الآن ، وكان له في حياتي نفوذا فعالا كما له في حياة جميع المولودين في نفس المحيط الذي ولدت فيه والعائشين في بيئة كبيئتي . ويلوح لي اني استطيع ان أعبر عنه بما يأتي : —

يعيش الناس في هذا العالم معيشة متساوية ، وهم في الغالب لا يعملون بمبادىء الايمان الذي يتعلمونه في المدارس بل بكل ما يعاكسه ، فان المعتقد لا تأثير له في الحياة ولا في علاقات الناس بعضهم مع بعض ، ولكنه كائن فى دائرة منفصلة عن الحياة مستقلة

عنها . وكلما تنازع المعتقد والحياة كانت السيادة للحياة ، لان قوة الاول لا تتعدى المظاهر الخارجية من كيانها

فحياة الانسان وأعماله كانت في ذلك الوقت كما هي اليوم قاصرة عن اظهار جوهر ايمانه ومعتقده . فان كان ثمت من فرق بين الذي يسلم بعقائد الكنيسة الارثوذكسية والذي ينكرها فان هذا الفرق في مصلحة الاول . وفي ذلك الوقت كما في وقتنا هذا نرى المتمسكين بحروف العقائد ومظاهرها يؤلفون الاكثرية الساحقة من البله والغليظي الطباع والمرائين والمتطوسين (المتخلقين باخلاق الطاووس) أما الذكاء ، والشرف ، والصراحة ، والايناس والادب فهي في الغالب بين غير المؤمنين اكثر مما هي بين المؤمنين.

يتعلم ابن المدرسة التعليم المسيحي ويرسل الى الكنيسة وكل ما يطلب منه انصار الطقس الظاهري فى هذا العهد من حياته ان يظهر شهادة الكاهن بانه اعترف وتناول الاسرار المقدسة. ولكن الرجل الذي يخرج من المدرسة ويقضي عليه بان يكون بين الطبقات الممتازة التي لا عمل لها فانه قلما يجد من يذكره بانه يعيش بين المسيحيين وانه عضو في الكنيسة الارثوذكسية المسيحية .

هذا هو حالنا اليوم كما كان من ذي قبل. — فان تأثير التعليم الديني الذي قبلناه في المدرســة عن طريق الثقة والايمان البسيط ، وحفظته السلطة المطلقة في حياتنا ، يضمحل شيئاً فشيئاً تجاه المعرفة التي نستمدها من اختبارات الحياة اليومية التى تناقض كل مبادئه ،

ومع ان الفرد منا يعتقد ان ايمانه لا يزال راسخاً في اعماق قلبه فان هذا الايمان لا أثر له في حياته العملية ،

جاءني أخيراً رجل فاضل من معارفي وقص عليّ كيف خسر ايمانه — قال ما خلاصته : —

حدث فيما كان في الصيد منذ ست وعشرين سنة انه ركع لكي يصلي قبل ان ذهب الى فراشه ، عملا بعادة احتفظ بها منذ صباه أما أخوه الاكبر الذي كان يرافقه في سياحته ، فانه جلس مقابله يتأمل في عمل أخيه . وعندما فرغ الاخ الاصغر من صلاته قال له الاكبر : —

« اف منك ، ألا تزال محتفظا بهذه العادة ؟ »

فلم يجب بكلمة قط ، ولكنه انقطع عن الصلاة من تلك الساعة ، ولم يذهب الى الكنيسة فيما بعد . وهكذا مرت على هذه الحادثة عشرات السنين وهذا الرجل لا يصلي ، ولا يعترف ، ولا يتناول الاسرار المقدسة ، ولا يذهب الى الكنيسة — ولم يحمله الى هذا تصديقه لمعتقدات أخيه ، التي لم يكن يعرفها ، — كلا . ولا لانه بلغ الى حقائق جديدة بدرسه وبحثه بل فعل مافعل لان كلمات أخيه جاءت كدفعة يد ضد حائط على اهبة السقوط . فقد برهنت له تلك الكلمات ان ايمانه كان طقسا فارغا ، ولذلك فان كل كلمة ينطق بها في صلاته ، وكل علامة صليب يرسمها ، وكل سجدة يقوم بها ، وكل حركة من حركاته الاخرى في الكنيسة لم يكن لها معنى قط . وعندما وثق بان أعماله في هذا الموضوع لا معنى لها اقلع عنها .

على هذا المنوال سارت اكثرية الناس ولا تزال تسير حتى اليوم وأنا أقول هذا عن ابناء طبقتي ، اولئك الذين يهمهم الاخلاص لحقيقة عقائدهم ، وليس الذين يتخذون من الدين وسيلة للربح والوجاهة : مثل هؤلاء هم بالحقيقة غير مؤمنين لانه اذا كان الايمان وسيلة للربح المادي فهو عند التحقيق ليس بالايمان الحقيقي بتة

وابناء طبقتنا هؤلاء يلخص مركزهم كما يأتي:— ان نور المعرفة والحياة قد اذاب قصور الايمان المصنوعة من الشمع في اعماقهم فادرك فريق منهم حقيقة الامر وعمدوا الى تنظيف أعماقهم من آثار هذه القصور المتهدمة . ولكن الفريق الآخر ظل متعاميا عن هذه الحقيقة فلم يشعر بها .

لذلك اعترف الآن بان الايمان المغروس في اعماقي منذ صبوتي قد زالت آثاره من قلبي كما تزول من قلب كل انسان. ولكن الفرق بيني وبين الكثيرين هو انني منذ الخامسة عشرة من عمري شرعت اقرأ كتب الفلاسفة ، وادركت في أعماقي عدم ايماني .فقدا نقطعت عن الصلاة . وأنا في السادسة عشرة من العمر، وتحولت عن حضور الاحتفالات الكنسية ، والمحافظة على صيامات الكنيسة بملء ارادتي وقناعتي . قد طرحت عني الايمان الذى تعلمته في صباي وما برحت اؤمن بشيء ، ولكنني لم أقدر أن أوضح ماهيته . قد آمنت بالله ، أو بالحري لم انكر وجود اله ، ولكن لم اقدر أن اوضح شيئا عن هذا الاله الذي لم انكر وجوده . انني لم انكر المسيح

ولم اجحد تعاليمه ، ولكن الحقيقة التي تدور عليها هذه التعاليم لم أعرف عنها شيئاً.

واليوم عندما افكر في ذلك العهد أرى ان كل الايمان الذي كان لي فكان له — بقطع النظر عن الغريزة الحيوانية المجردة — التأثير النافذ في حياتي كان ينحصر في عقيدتي بامكانية البلوغ الى الكمال الذى لم اكن اعرف شيئاً عن حقيقته أو نتائجه .

قد جربت الوصول الى الكمال الفكري ، ودرست كل ما بلغت اليه قوتي من مواضيع الحياة ، وجاهدت طويلا لانماء قوة ارادتي واضعا لنفسي قواعد للعمل بها بدقة وصرامة ، وبذلت قصاراي لتقوية جسدي بالرياضة المتنوعة التي تعمل على صلابة العضلات والاحتفاظ بالقوة البدنية ، وعودت نفسي الصبر واحتمال المشقات والآلام الاختيارية ، وكنت انظر الى جميع ذلك نظرتي الى اعظم وسائل للبلوغ الى الكمال المنشود .

وفي بداءة عملي كنت أعتقد ان الكمال الادبي هو غايتي الرئيسية ، ولكنني لم البث ان وجدت نفسي ساعيا وراء الكمال العام في جميع الاعمال. أو بعبارة أخرى انني لم ارغب في الكمال أمام نفسي أو أمام الله ، بل بالكمال أمام جميع الناس . ولكن هذا الشعور بمحبة الكمال في عيون جميع الناس لم يمض عليه ردح حتى تحول الى رغبة في الحصول على قوة ليس للناس مثلها ، والبلوغ الى أقصى ما يكون من الشهرة والثروة والمجد

الفصل الثاني

سيطالع القراء في فصل تال خلاصة تاريخ حياتي ، وحوادث صبوتي المؤلمة والممتلئة بالدروس والعجائب . واني أعتقد ان الذين مرت بهم اختبارات حياتي كثيرون جداً في العالم . فقد رغبت من أعماق قلبي في ان اكون صالحا . ولكنني كنت صغيراً ، وكانت لي اهوائي الجامحة ، وكنت وحيداً منفرداً في تفتيشي عن الصلاح فكنت كلما جربت أن أعبر عن حنين قلبي الى الحياة الادبية أرى جيوش الاحتقار تحيط بي والسخرية ترافقني ، في حين انني كلما استسلمت لشياطين اهوائي يلازمني الاطراء والتشجيع من كل قوة في فكري

ولذلك كانت اسمى مراتب الاخلاق الصالحة في عقيدتي منحصرة في الطموح ، ومحبة القوة ، والحصول على الربح ، والكبرياء والغرور ، والغضب والانتقام .

وهكذا صرت باستسلامي لاهواء نفسي مماثلا لابناء عشيرتي شاعرا برضاهم عن تصرفي . ومن اعجب ما اذكره عن تلك الايام انني كنت اعيش مع عمة لي ، هي بالحقيقة امرأة فاضلة ، ولكنها طالما حدثتني بان اعظم ما ترجوه لي في حياتي من المجد والفخار ينحصر في ان أراود امرأة متزوجة عن نفسها واربح قلبها . ومن

رغباتها الكثيرة لسعادتي أن أصير ملازما عسكريا ، وان امكن ملازما للامبراطور . واعظم من كل هذا : ان اتزوج يوما من الايام غروساغنية تحمل لي ثروة بالغة من ألوف الدنانير وعشرات العبيد

انني لا استطيع أن اتذكر حوادث تلك الاعوام السوداء من غير مرارة في قلبي وآلام في اعماق روحي .

قد قتلت الكثيرين في الحرب ، وبارزت الكثيرين لافقدهم حياتهم ، وخسرت أموالا كثيرة بالمقامرة ، وانفقت الاموال الكثيرة التى وصلت الي باعراق الفلاحين ، وكنت قاسيا عاتيا في معاملة خدامي ، ولم اترك سبيلا من سبل الفسق والدعارة مع العواهر الا سلكته ، ولم تفتني طريقة من طرق الخداع والمراوغة : كذب وسرقة ، وزنا ، وسكر وتمرد وقتل .. كل هذا جزء من حياتي في تلك الايام . فليس في قاموس الجرائم جريمة واحدة لم ارتكبها — ولكنني كنت مع كل ذلك مكرما محترما من ابناء عشيرتي كرجل أديب فاضل .

هكذا عشت مدة عشرة سنوات

وفي هذه المدة بدأت بالكتابة التي لم يحملني اليها سوى غروري ومحبتي للربح ، والشهرة الكاذبة . وقد تبعت بكتابتي نفس الطريق التي اتخذتها لنفسي في رجولتي . ومن أجل رغبتي في الحصول على المال والشهرة ، التى لاجلها اتخذت القلم حرفة لي ، كنت ارى نفسي مضطراً ان اخفي الصالح واظهر الشرير في كل ما اكتبه . هكذا

فعلت . وطالما قضيت الليالي أحارب أفكاري ، لاخفي ما فيها من الطموح الى الاكمل والافضل ، الذي كان بالحقيقة ضالة أحلامي الحقيقية . ولكن رغبتي في الشهرة كانت تقضي على كل صلاح في فكري . وعلى خداعي الكثير في كتابتي نجحت نجاحا باهراً ، وكان الناس يقرأون كتابتي مادحين شاكرين

وعندما بلغت السادسة والعشرين من العمر ذهبت الى بطرسبرج في نهاية الحرب ، وهنالك تعرفت بكبار المنشئين والكتاب في تلك الايام . فاستقبلني الجميع بالتأهيل والتعظيم .

وقبل أن أجد لنفسي فرصة لدرس المحيط الذى جئت اليه وجدت ان عادات الكتاب واطوارهم في تلك المدينة قد لزمتني ، وصارت جزءاً من حياتي ، وقضت قضاء مبرماً على كل آمالي وجهادي في سبيل الكمال في الحياة . ولم تعدم هذه الاراء والعادات الجديدة مبرراً في ذهني لان فكري كان على اتم الاستعداد لكل جديد .

وكانت لرفقائي الكتاب في ذلك العهد نظرية في الحياة خلاصتها : ان الحياة نشوء لا حد لتطوراته ، وان القوة الفعالة في احداث هذه التطورات مستمدة منا نحن المنكرين ، وان اقدر المفكرين على القيام بهذا العمل هم الفنانون والشعراء . لذلك ينحصر واجبنا في الحياة كمفكرين فنانين وشعراء ان نعلم الناس ، ونصبغ افكارهم بصبغة افكارنا .

ولكي اتجنب الجواب على السؤال الطبيعي الذي كان يواجهني في هذه الظروف وهو : « ماذا اعرف ؟ وما الذي اقدر ان اعلمه للناس ؟ » كنت اضيف الى النظرية المار ذكرها انه ليس من الضروري ان اعرف هذا ، لان الفنان والشاعر يعلمان ما يصل اليهما بطريق الوحي من غير ان يشعرا به .

وكان الناس ينظرون اليّ نظرتهم الى شاعر كبير وفنان عظيم . ولذلك اتخذت هذه النظرية لنفسي وآمنت بها . وانا ، الفنان والشاعر ، كتبت وعلمت ما لم تكن لي اقل معرفة به . ولكنني كنت اقبض اجرة عن عملي . فاقتنيت لنفسي المنازل الفخمة ، وانفقت الاموال الكثيرة على الولائم ، والحفلات الاجتماعية ، وكان لي نصيب وافر من الشهرة ، وكنت اعتقد بحكم الطبع ان تعاليمي صالحة ومبادئي مستقيمة .

كان الايمان بالشعر ، وبنمو الحياة ، ايمانًا حقيقيًا ، وكنت كاهنًا حقيقيًا ابشر به . وكان القائم بمثل هذا العمل اذ ذاك رفيقًا للربح والكرامة في جميع اعماله . ولذلك بقيت عاملا على نشره زمنًا طويلا ولم اشك في صحته .

ولكنني في العام الثاني ، وخصوصًا في العام الثالث من هذه الحياة ، بدأت أشك في عصمة هذه العقيدة ، فعمدت افحصها وادرسها باوفر دقة وفطنة . واول ما دفعني الى الشك انني رأيت كهان هذه

النظرية متخالفين فيما بينهم في فهمها والعمل بها . فكان فريق منهم يقولون : —

« نحن افضل المعلمين وانفعهم . نحن نعلم الناس ما هم في حاجة اليه ، وكل المعلمين الاخرين في ضلال مبين . »

وكانوا يتخاصمون ويتحاربون فيما بينهم ، وكل منهم يبذل قصاراه ليسيء الى الاخر ويخدعه ويمكر به . وفوق هذا فان الذين وقفوا على الحياد منا فلم يهمهم الانحياز الى احد الفريقين المتناظرين ، لم ينزهوا ذواتهم عن العار الذي انقاد رفقاؤهم اليه ، بل عمدوا الى الحصول على الربح الخصوصي باستثمار جهود رفقاؤهم المتخاصمين. كل هذا حملني الى الشك في صحة العقيدة التي آمنت بها .

وقد دفعني هذا الشك في صحة ايماننا الادبي العلمي الى درس حياة كهانه فرداً فرداً . فثبت لديّ بعد الدرس الطويل ان الاكثرية الساحقة بينهم رجال ارذياء لا قيمة لاعمالهم ، ولا صلاح في حياتهم وهم بالحقيقة في مستوى اكثر انحطاطاً من المستوى الذي عاش فيه رفقائي في العسكرية . ولكنهم واهمون في ذواتهم ، واثقون بصلاحهم ، ولا توجد مثل هذه الثقة الا في القديسين الحقيقيين ، او في اولئك المرائين الذين لا يعرفون للقداسة من معنى .

حينئذ يئست من الانسانية ومن نفسي ، وادركت ان ذلك الايمان لم يكن الا وهماً عقيماً . وأعجب ما في الامر انني ، على اعراضي عن الايمان بهذه النظرية الفاسدة ، ورفضي الاجتماع باصحابها

واتباعها ، ما برحت اتمسك باللقب الذي منحني اياه كهنتها ، وهو لقب شاعر وفنان ومعلم . فقد قادتني بساطتي ، في ذلك العهد ، الى التصور اني شاعر وفنان ، واني استطيع ان اعلم الناس من غير ان اعرف ما الذي اعلمهم اياه . ولكنني كنت افعل كل هذا .

وقد ربحت من مصاحبتي لاولئك الرجال رذيلة جديدة ، غروراً معجوناً بالكبرياء والعناد ، وثقة بالنفس سدتها الجنون ولحمتها الاعتقاد باني قادر ان اعلم الناس ما لا اعرفه ولا اشعر به . وعندما افكر الان في تلك الايام واتذكر حالتي الفكرية ، وحالة المفكرين رفقائي ، (الحالة التي لا تزال شاملة الالوف من ابناء الانسان) اشفق على نفسي واخاف منها واحتقرها .

فقد كنا باجمعنا مقتنعين بان الواجب يقضي علينا ان نكتب ونتكلم ونطبع كتاباتنا وكلامنا بسرعة فائقة ، لانه على هذا يتوقف عمران الوجود ونجاح الجنس البشري

ولكن الوفاً منا كتبوا ، وطبعوا ، وعلموا ، ولم يعملوا الا على ضلال الناس وخداع احدهم الاخر . لاننا لم ندرك اننا نحن انفسنا لا نعرف شيئاً لان ابسط مسائل الحياة — وهي مسئلة ما هو الخير وما هو الشر — لم نعرف كيف نجاوب عليها . ولكننا كنا نجتمع ، ونتكلم ، ونخطب ، من غير ان يصغى احدنا للاخر الا لكي يطرئه ويثني عليه واثقاً بان مثل هذا الاطراء سيرجع اليه مضاعفاً ، ثم لا نلبث ان يثور بعضنا على بعض ، ويخاصم واحدنا الاخر ،

كانننا نمثل رواية كاملة كل ابطالها مجانين من الدرجة الاولى .

وكان الالوف من العمال يشتغلون ليلا ونهاراً بصف الحروف ليطبعوا اقوالنا ، وينشروها في جميع انحاء روسيا ، ونحن لا ننقطع هنيهة عن التعليم والكتابة ، متذمرين ان الوقت اضيق من ان يكفي للقيام باعمالنا ، وان الناس لا يصغون الى اقوالنا الحكمية .

حالة عجيبة غريبة لم افهم حقيقتها في ذلك الحين ، ولكنني ادركها اليوم كما هي . فان العامل الحقيقي الذى كان يوحى الينا افكارنا واقوالنا في ذلك الوقت انما هو الرغبة في الحصول على المال والمديح اللذين لم نعرف طريقة للحصول عليها بغير تأليف الكتب والجرائد . وهكذا فعلنا . ولكي نزداد تمسكا بالاعتقاد اننا ونحن نقوم بهذه الاعمال التافهة نؤلف اعظم طبقة في روسيا ، رأينا ان نبرر ذواتنا بتعظيم العمل الذي نقوم به ، ولذلك قررنا في اجتماع عام القرار الآتي : —

« كل ما هو كائن فهو حق وصواب . وكل ما هو كائن انما هو نتيجة للنشوء فالنشوء يصدر من المدنية . ومقياس المدنية هو انتشار الكتب والجرائد . نحن نقبض اجرتنا ونال اكرام الشعب واعتباره لقاء الكتب والجرائد التي نؤلفها ، ونحن لاجل هذا انفع الناس وأفضلهم . »

وربما كان هذا القرار نهائيا ، لو اجمعت كلمتنا عليه . ولكن كل رأي من آرائنا كان يصادف في الحال رأيا آخر يناقضه ، ولذلك

كنا نتردد طويلا في قبول اي اقتراح نسمعه . بيد اننا لم نعبأ للامر ، لاننا كنا نقبض اجورنا ، وننال اطراء المجتمعين حوالينا . ولذلك كان يخيل الينا اننا في جانب الحق .

والحقيقة التي اراها واضحة أمام عيني وأنا أكتب هذه السطور أنه لم يكن ثمت أقل فرق بيننا وبين المجانين . ومع انني كنت افكر في هذا من ذي قبل ، ولكنني كسائر المجانين كنت اعتقد أن جميع رفقائي مجانين وليس بينهم عاقل غيري

الفصل الثالث

وقد عشت في هذه الحالة الجنونية ست سنوات اخرى الى وقت زواجي . وفي هذه الاثناء سافرت الى اوروبا . وكانت حياتي في اوروبا ، وتعرفي بعظماء مفكريها وعلمائها ، عاملا فعالا على تأييد عقيدتي بامكانية البلوغ الى الكمال العام الذى كان المفكرون في اوروبا يؤمنون به . وهو الى اليوم يشغل أذهان المفكرين في جميع انحاء العالم وهم يعبرون عنه بكلمة التقدم . وقد اعتقدت في ذلك الوقت أن هذه الكلمة ذات معنى حقيقي بذاتها . لانني لم أكن بعد فاهماً انني عندما أرى نفسي معذباً ، كجميع الناس ، من السؤال « كيف أقدر أن أعيش أفضل مما أنا عائش ؟ » فاجيب بانه يجب عليّ أن أعيش لأجل التقدم العام ، انما اردد جواب الرجل الذي كان يسير في قارب تحمله أمواج البحر ورياحه ، ولا يرى أمامه

سوى السؤال الواحد : « الى أية جهة يجب أن ندير الدفة؟ » فيجب على الفور قائلا : « اننا مسيرون الى جهة ما . »

انني لم ارَ هذه الحقيقة في تلك الايام . ولكن عواطفي دون افكاري كانت تثور في ظروف نادرة على خرافات ذلك العصر واوهامه التي تقود الناس الى تجاهل جهلهم المذيب لحقيقة الحياة .

وفي اثناء اقامتي في باريس اظهر لي منظر اعدام أحد المجرمين ضعف اعتقادي الوهمي بالتقدم . لانني عند ما رأيت رأس الرجل يطير عن جثته ، وسمعت الصوت الذي أحدثه سقوط رأسه وجثته في الصندوق المعد لها ، ادركت بكلية كياني ، وليس بفكري فقط انه ما من نظرية محكمة جميع النظم الموضوعة ، والعقائد المقررة القائلة بالتقدم والارتقاء ، تستطيع أن تبرر مثل هذا العمل الفظيع وأدركت أيضاً في اعماق قلبي انه ، ولو اجمعت كامة كل أبناء الانسان منذ الخليقة الى الآن ان مثل هذا العمل ضروري للتقدم فاني اعرف كل المعرفة ، أنه غير ضروري ، وانه عمل رديء بذاته ولذلك يجب عليّ أن أحكم على ما هو حق وضروري ، ليس بما قاله الناس وفعلوه ، ولا بما رتبوه من النظم للتقدم ، بل بما اشعر بصوابه في اعماق قلبي .

وهنالك حادثة اخرى ، اظهرت لي نقصان الرأي القائل بضرورة اتخاذ عقيدة التقدم الوهمية هذه نظاما للحياة . أما الحادثة فهي موت أخي . فقد مرض وهو في مقتبل العمر ، واحتمل آلام

مرضه المريرة عاما كاملاً ، ومات متألماً متوجعاً . فقد كان رجلا مقتدراً بالقول والعمل ، وكان ذا قلب رقيق ، هادئاً ، رصيناً ، ولـكنه مات ، من غير أن يعلم لماذا عاش في هذا العالم ، جاهلا حقيقة الموت كل الجهل . ولم تقدر نظرية أو عقيدة في الوجود أن تجاوب على هذه المسائل جواباً يقنعه ، أو يقنعني ، سحابة مرضه وأوجاعه .

على أن هذه الحوادث ، التي عملت على اضطراب ايماني بالتقدم كانت قليلة جداً ، وبعيدة بعضها عن بعض . ولذلك كنت اواظب على معتقدي بالـكمال وايماني بالتقدم . وكانت تعزيتي الواحدة بهذه العبارة التي ألفتها لنفسي : «كل شيء ينمو ويتغير . وأنا نفسي أنمو واتغير كل يوم . وسيأتي يوم يدرك فيه الجميع سر هذا النماء»

وعند رجوعي من أوروبا هجرت المدن وأقمت في الريف ، وعمدت الى انشاء المدارس في القرى والمزارع لتعليم الفلاحين . وقد كان هذا العمل عزيزاً لدي جداً ، لبعده عن الادعاء الفارغ ، الذي يرافق وظيفة المعلم الأدبي الـكبير الذي يشتغل بالتأليف والـكتابة .

وفي هذه الحالة كنت اشتغل ثانية باسم التقدم ، ولـكنني في هذه المرة كنت انظر بروح الفاحص الناقد الى الاسس التي يقوم عليها صرح التقدم . فقلت لنفسي ، ان التقدم يجب أن ترافقه الحرية والعقل ، ولذلك يجب أن يعطى أبناء الريف وأولاد الفلاحين

ملء الحرية باختيار الطريق التي تلائمهم للبلوغ الى التقدم الذي يحتاجون اليه . وانني اصارح القارىء القول انني كنت لا ازال اعالج حل القضية التي لا حل لها : — « كيف اعلم من غير أن أعرف ما يجب أن أعلمه ؟ » فقد أدركت ، في أرقى مراتب الاعمال الادبية ، ان مثل هذا العمل مستحيل ، لانني رأيت ان كلا من المعلمين يختلف عن الآخر بطريقة تعليمه ، وبما يعلمه ، ولذلك يخاصمه ، وينازعه ويجاهد عبثاً ليخفي عنه جهالته وغروره . ولكنني ، وقد انحصرت أعمالي باولاد الفلاحين ، رأيت انني قادر أن اتغلب على هذه العقبة ، باطلاق حرية الأولاد ليتعلموا الموضوع الذي يحبونه واكاد اخجل من نفسي عند ما اتذكر الطرائق العديدة التي لجأت اليها لتعليم الناس ، وأنا أعرف في نفسي انني لا استطيع أن أعلم شيئاً نافعاً ، لانني انا نفسي لم أكن اعرف ما هو الضروري للناس .

وبعد أن قضيت عاما كاملا في تنظيم مدارس الفلاحين رجعت الى اوروبا ثانية لكي اتعلم كيف أقدر أن أعلم من غير ان اعرف شيئاً

وقد ثبت لدي بعد الدرس والفحص انني قد وجدت الحل الاخير للقضية فتسلحت بمعلوماتي الحكيمة الجديدة ، ورجعت الى روسيا في نفس السنة التي نال فيها الفلاحون حريتهم من العبودية ، فعينت فيها قاضيا ، وعمدت الى تعليم غير المتعلمين ، بواسطة المدارس والمتعلمين ، بواسطة اعمدة الجريدة التي شرعت في اصدارها ، وقد سارت أعمالي على أتم ما يرام من النجاح ، ولكنني شعرت ان

عقلي لم يكن في حالة طبيعية ، ولذلك ادركت أن تغييراً فجائياً سيطرأ عليّ . واني ارجح أن اليأس الذي اصابني ، بعد ذلك بخمس عشر سنة ، كان يمكن أن يصيبني اذ ذاك لو لم يقم في سبيله حادث عظيم في حياتي جعلني في مأمن منه ، وهو حادث زواجي .

وقد مر العام الاول وأنا اشتغل في كل دقيقة من يومي بالتحكيم ، والتعليم في المدارس ، وتحرير جريدتي ، حتى شعرت انني أكاد ارزح تحت اثقال الواجبات الكثيرة التي القيت على كاهلي . وظل الحال هكذا حتى صرت انظر الى كل أعمالي في القضاء ، والمدرسة ، والجريدة ، نظرتي الى ألد اعدائي . فوقعت اخيراً في مرض عقلي ، اكثر مما هو جسدي ، وتركت أعمالي ، وسرت الى البرية ، حيث أصبحت وحيداً اتنشق نسيم الطبيعة النقي ، واعيش بين الحيوانات البرية المعيشة الطبيعية الحق .

وعند رجوعي تزوجت . فقادتني السعادة التي وجدتها في حياتي الزوجية الى الهرب من السعي وراء ادراك معنى الحياة العام فحصرت أفكارى وجهودي في عيلتي — في زوجتي ، واولادي ، وفي الاهتمام بتوفير وسائل الراحة لهم ولي . فالجهاد للبلوغ الى الكمال الشخصي ، الذي عقبه العمل على تأييد التقدم العام ، تحول اخيراً الى السعي وراء سعادة عيلتي الصغيرة .

على هذه الصورة عشت مع أهل بيتي خمس عشرة سنة .

ومع اني في اثناء هذه الخمس عشرة سنة كنت انظر الى صناعة

الانشاء والتأليف نظرة احتقار ، فقد واظبت كل المدة على الكتابة والتأليف . فقد خبرت بنفسي ما في هذه الصناعة من الترغيب والتشويق ، وما تقدمه المنخرطين بها من المكافأة المالية على ما يكتبونه ويؤلفونه ، اذا نال رضى العامة ، واقبلت الجماهير على مطالعته ، ولذلك عمدت الى الكتابة ، لمجرد الرغبة في تحسين حالتي المادية مغمضاً عيني عن البحث عن حقيقة حياتي أو الغاية من الحياة كلها . وكنت اعلم في جميع كتاباتي الحقيقة الواحدة ، التي اعتقدت بها اذ ذاك ، ان غاية الحياة يجب أن تنحصر في الحصول على سعادتنا وسعادة عائلاتنا لا اكثر ولا أقل .

هكذا عشت — ولكنني منذ خمس سنوات [١] شعرت بتطور غريب في حياتي ، فكنت أرى نفسي في حيرة ، لا أدري كيف اتخلص منها . لا أعرف كيف أقدر أن أعيش ، ولا ماذا أعمل في حياتي ، فبت مضطرب البال ، تتقاذفني أمواج اليأس ، وتسير بي رياح التردد حيث شاءت . ولكنني تغلبت على كل هذا ورجعت حياتي الى مجاريها الاولى . غير ان الشقاء كتب لي في ذلك الوقت فعاودتني حيرتي في الوجود ، فبت انشد راحتي ، ولا أجد أمام عيني سوى شبح قائم يردد عليّ بصوته الراعب قائلا :—

« لماذا تعيش ؟ وما هي الغاية من حياتك ؟ »

(١) كتب تولستوي هذا الاعتراف سنة ١٨٨٣

وقد خطر لي أولا أن هذه المسائل لا معنى لها ، ولا غاية منها وان الجواب عليها بسيط أهتدي اليه بملء السهولة متى اردت . ولكن عجزي عن البلوغ الى الجواب في ذلك الوقت كان ناشئاً عن اشتغالي بمواضيع اخرى ، واني سأهتدي الى الجواب متى افردت له متسعا من وقتي . ولكن هذه المسائل ما برحت تزدحم أمام عيني طالبة جواباً ، من غير أن تفسح لي وقتاً لادرسها ، وهي تتجمع في كل لحظة بعضها وراء بعض ، كما تتجمع النقط الصغيرة ليتألف من مجموعها بقعة سوداء كبيرة .

وقد اصابني نفس ما يصيب كل مريض في بداءة مرضه ، تعرض له بعض الايام بسيطة ، فلا يعبأ لها ، وهي لا تلبث أن تزيد وتتجمع حتى يتألف من مجموعها داء عياء ، يقضي على راحته ويسلبه سعادته ، فيعمد المريض المسكين الى ملافاة الخطر ، ولكنه يرى نفسه قاصراً أمام عدوه ، ويدرك أن المسئلة ، التي بدت له لأول وهلة تافهة لا أهمية لها ، قد أصبحت قضية في الوجود يسعى الى حلها ، ولا يهتدي الى ما ينقذه منها ، وهي قضية موته .

هذا نفس ما حدث لي . فقد ادركت اخيراً أن ما يواجهني من الاضطراب ليس بالامر البسيط الذي لا يؤبه له ، بل هو داء عضال يجب أن احاربه قبل أن يتأصل في كياني ويستحيل عليّ استئصاله . ومع ان المسائل التي كانت تعرض امامي ، ظهرت لي في أول الامر بسيطة ، أشبه بأسئلة الصبيان الصغار منها بالاسئلة التي

يجب على الحكيم أن يعيرها اهتمامه ، فانني رأيت في كل مرة جربت أن أجيب عليها ، أنها ليست اسئلة صبيان بسيطة ، بل هي بالحقيقة شاملة لاعمق أسرار الحياة البشرية . وانني عاجز بكل ما لديّ من المعرفة أن اقدم عنها جوابا واحداً .

لذلك كنت ، قبل الاهتمام باملاكي ، أو تهذيب ابني ، او كتابة كتبي ، أرى نفسي مضطراً الى معرفة السبب الذي يحملني الى كل هذه الاعمال . فاذا كنت لا أعرف السبب الذي يدعوني الى كل هذا ، فاني لا اقدر أن أقوم بعمل مثله ، ولا أقدر أن أعيش في الوجود . وفيما أنا افكر في تدبير بيتي واملاكي ، التي كان لها المقام الاول في فكري . في ذلك الحين ، خطر لي فجأة السؤال التالي :—

«حسن وجميل ان يكون لي في حكومة سمرا ستة آلاف فدان ارض ، وثلاثماية حصان و . . ولكن ما الفائدة من كل هذا ؟ »

ولكنني لم اعلم كيف اجيب ، ولا بماذا افكر . وحدث في مرة اخرى ، فيما أنا ارسم خطة لتعليم اولادي ، انني سألت نفسي قائلا : « ولماذا ؟ » وبعد أن فكرت هنيهة في خير الوسائل العائدة لفائدة الانسانية وتقدمها صرخت على الفور قائلا : « وماذا يعنيني من موضوع كهذا ؟ »

وعند ما فكرت في الشهرة التي حصلت عليها بواسطة مؤلفاتي وأعمالي قلت في نفسي :—

« حسن وجميل . ولكن ما الفائدة اذا صرت اشهر من

غوغول و بوشكين وشكسبير وموليار ، وجميع كتاب العالم ؟ كل هذا جميل ولكن ماذا بعده ؟ . . »

انني لم أجد جوابا . ولكن مثل هذه الاسئلة لا تطيق الانتظار . فهي تطلب الجواب في الحال . والمرء بدون الجواب عليها لا يقدر أن يحيا ولكن أين الجواب ؟ لم أدر

فكنت اشعر ان الارض التي أقف عليها ترتجف تحت قدمي وتسير الى العدم ، وانه لا يوجد شيء استطيع ان اضع عليه قدمي لأظل واقفاً في الوجود ، وان ما عشت لاجله حتى تلك الساعة انما هو لا شيء ، ولذلك لم يبق لي عذر للحياة ، فيجب ان اموت .

الفصل الرابع

في ذلك الوقت شعرت ان حياتي قد وقفت عن سيرها . كنت قادرا أن اتنفس ، وان اكل ، واشرب ، وانام ، ولكنني لم اكن مخيراً في تنفسي ، واكلي ، وشربي ، ونومي . لان الروح التي كانت تنعش حياتي فارقتني ، ولم يبق لي مطمع في الحياة أرى في تحقيقه والسعي وراءه لذة ومبررا تجاه فكري . فكنت كلما رغبت في شيء ، أعرف قبل أن أنشده ، ان بلوغي اليه وعدمه سيان في نظري . ولو ان جنية جاءتني في ذلك العهد بكل ما أريد، لما عرفت ما أقوله لها . وان كان قد خطر لي ، في ذلك العهد، في وقت ثوران

عواطفي ، بعض المشتهيات ، أو بالحري اشباه المشتهيات القديمة،فان كل هذا كان يزول كأنه لم يكن في حالة هدوئي واعتدال عواطفي ، لاني كنت أرى انه ليس بالحقيقة سوى وهم بسيط لا حقيقة دونه ولم أقدر إذ ذاك أن ارغب في ادراك الحقيقة لان غروري كان يصورها لي كما هي

فكانت الحقيقة في عقيدتي ان الحياة لا معنى لها . فكل يوم من أيام حياتي، وكل خطوة من خطواتي في الحياة ، كانت تقربني من الهوة الكبرى : حيث كنت أرى بملء الوضوح انه ليس أمامي سوى الخراب والدمار . وكان وقوفي عن المسير مستحيلا ، كما ان الرجوع الى الوراء كان مستحيلا أيضاً . وألم من هذا انه كان يستحيل على أن أغمض عيني فلا أرى انه لا يوجد شيء أمامي سوى الشقاء ، والالم ، والموت الاكيد والعدم .

وهكذا ، أنا الرجل السعيد ، الصحيح العقل والجسم، صرت اشعر في أعماقي أن الحياة مستحيلة عليّ ، لان قوة جبارة كانت تقودني الى الهرب من الحياة . وانا لا أعني بهذا انني رغبت في قتل نفسي .

ان القوة التي ابعدتني عن الحياة كانت أقدر ، وا كمل، واعم من أية رغبة في الوجود . فقد كان لها نفس القدرة ، التي كانت للقوة الاولى التي قربتني من الحياة ولذاتها ، ولكنها كانت تسير

في جهة معاكسة للجهة التي صارت فيها تلك القوة الاولى. وقد بذلت كل جهدي للهرب من الحياة .

وكانت فكرة الانتحار تخطر لي في كل يوم ، بل كل ساعة كما كانت فكرة الجهاد في سبيل كمال الحياة ، رفيقة لأحلام شبابي. وقد لزمني هذا الفكر ، وكان يبدو لي جميلا جذابا ، بهذا المقدار حتى اضطررت أخيراً ان الجأ الى وسائل عديدة للحؤول دون تنفيذه بسرعة ولم يحملني الى التردد في الانتحار سوى رغبتي في استعمال كل قوى حياتي في تنظيف أفكاري من اقذار الاوهام العالقة بها ولو لم يتم لي هذا لكنت أقتل نفسي في الحال . وما كان أشبه حياتي في ذلك الوقت بحياة رجل سعيد يخفي حبلا غليظا من أمام عينيه لكي يتخلص من التجربة التي يقدمها له هذا الحبل ليشنق نفسه في غرفة نومه . ولذلك انقطعت عن الذهاب الى الصيد، خوفا من ان تقودني البندقية التي احملها الى التخلص من حياتي . انني لم أعرف ما الذي كنت اتوق اليه . فقد كنت اخاف من الحياة ، ولذلك جاهدت للتخلص منها . ولكن مع كل هذا كان في اعماقي حنين الى شيء لم أعرفه فيها .

هذه هي الحالة التي قدر لي ان اصير اليها في وقت كانت فيه كل ظروف حياتي سعيدة جداً ، ولم اكن قد بلغت الخمسين من عمري بعد فقد كان لي زوجة صالحة تحبني واحبها ، وأولاد مهذبون ، وأملاك واسعة كانت تنمو وتزداد من غير أن اتعب في سبيلها .

وكنت موضوع احترام واكرام من جميع اصدقائي ومعارفي. وكان الغرباء عني يطرئونني وصار لي من الشهرة الواسعة مالم أحلم باكثر منه . وفوق كل هذا ، فاني لم اكن مجنوناً ، ولم يكن في دماغي أقل ضعف . بل كنت على العكس من هذا ممتعا بتمام الصحة عقلا وجسدا مما لم يكن أقل من مثله لاقراني . فكنت أجاري أقوى الحصادين في عمله ، واجلس الى مكتبي ثمان ساعات وعشر ساعات دفعة واحدة من غير أن أشعر بأقل تعب أو ضرر. ولكنني مع كل هذا وصلت الى هذه الحالة : انني اكره الحياة ولا أريد أن اعيش . ولكن خوفي من الموت كان يضطرني الى استنباط الحيلة ضد نفسي لكي لا أضع حداً لحياتي .

ويلوح لي اني استطيع التعبير عن حالتي الفكرية في ذلك الوقت عما يأتي : — كانت حياتي اضحوكة جنونية خبيثة موجهة اليّ من شخص لا أعرفه ، ومع انني لم أكن اعترف بوجود هذا الشخص الذي يقولون انه خلقني ، فان هذه النتيجة القائلة بأن هذا الشخص قد ضحك عليّ بجنون وسخرية ، عندما خلقني في هذا العالم ، كانت تظهر لي كأنها اصدق ما في الحياة من النتائج الطبيعية .

ولم أكن اقدر ان اتخلص من التفكير في ان في الوجود كائنا يتنعم على حسابي ويسخر بي وهو يراقب أعمالي ، لانني بعد ان جزت الاربعين ، وكدت ابلغ الخمسين من العمر الذي قضيته بالدرس والنمو الفكري والجسدي ، وبعد ان بلغت كمال رشدي ، ووصلت

الى قنة ادراك الحياة ، أرى نفسي واقفا على رأس جبل المعرفة البشرية فاهما بملء الوضوح انه ليس في الحياة شيء نعيش لاجله وانه لم يوجد فيها شيء في المستقبل . ولذلك كنت أعتقد ان الذى أوجد هذه الحياةلم يقصد منه سوى السخرية والهزء بابنائها .

ولكن وجود هذا الكائن الاعلى أو عدم وجودهلم يساعدني قط . لانى في جميع أعمالحياتي لم أقدر أن أرى عملا واحداً ينطبق على العقل . واعظم ما كان يعمل على دهشتي انى لم ادرك هذه الحقيقة في بداءة حياتي . فقد كانت كل هذه الحقائق أمام سحابة عمرى ، وكنت أعرف ان المرض والموت قادمان على الجميع ، ان لم يكن اليوم فغداً ، واني وجميع اصحابي صائرون الى لا شيء ، ولا يبقى بعدنا سوى النتانة والدود . فكل أعمالي مهما عظمت سائرة الى النسيان ، ان لم يكن عاجلا فآجلا أما انا نفسى فان يكون لوجودي أثر فيما بعد . فلماذا يهتم الانسان بما فيالحياة والحالةهذه؟ كيف يقدر الناس أن يتعاموا عن رؤية كلهذا ويعيشوا ؟ ان هذا بالحقيقة لامر عجيب غريب ! فالمعيشة ممكنة اذا كان فى الحياة ما يستهوي صاحبها ويسكره.ولكنهلا يلبث ان يصحو من سكرته فيدرك ان كل هذا وهم كاذب شرير . فليس فى الحياة اذن شيء يضحك صاحبها أو يسليه ، لان كل ما فيها موجع وردىء .

جاء فى احدى القصص الشرقية القديمة ان رجلا كان يطارده وحش شرس بري ، فلجأ الرجل الى بئر لا ماء فيها لينقذ نفسه من

شر الوحش . ولكنه لسوء حظه لم يدخل البئر حتى رأى في قعرها تنينا فاغرا فمه ليبتلعه . فأخذ الرعب بمجامع قلب الرجل المسكين ولكنه لم يجرؤ على الخروج من البئر خوفا من الوحش ، ولا على النزول الى قعر البئر خوفا من التنين . ولذلك عمد الى غصن شجرة صغيرة كانت نابتة في شق من شقوق البئر . ولكن التعب أخذ من ذراعيه مأخذه فادرك انه هالك لا محالة ، لان الموت كان ينتظره في الامرين جميعاً . ولكنه ظل متعلقا بالغصن . وفيما هو ينظر الى جذع الشجرة التي كان متعلقا بها رأى جرذين: الواحد ابيض والثاني اسود يدوران حول جذع الشجرة ، وهما يقرضانه بهمة ونشاط . رأى المسافر كل هذا وادرك ان الشجرة ستسقط قريباً فيقع هو في فم التنين الذي كان يترقبه بفارغ الصبر . ولكنه نظر في الوقت نفسه بضع نقط من العسل على أوراق الشجرة فمد لسانه وشرع يلحسها متناسيا شقاءه كله .

هكذا اتعلق انا بغصن شجرة الحياة ، عارفا ان تنين الموت ينتظرني ، وهو على اتم الاستعداد ليمزقني اربا اربا . ولا ادري لماذا قدر لي ان احتمل كل هذه المشقات . وأنا أيضاً ، كذلك المسافر ، كنت اسعى لامتصاص العسل الذي عرض لي في طريقي الماضية ، ولكن هذا العسل لا يلذ لي اليوم . في حين ان الجرذ الابيض والاسود ، وهما الليل والنهار ، يعملان بغير انقطاع في قرض الغصن الذي اتمسك به . انني أرى التنين بوضوح ، والعسل لم تبق له حلاوة

في عقيدتي ، انني أرى التنين الذي لا مهرب منه ، وانظار الجرذين الكبيرين ، ولا استطيع أن احول عنهما نظري . واعظم من كل ذلك ان هذه ليست بالقصة الخرافية ،بل هي حقيقة ناصعة لا ينكرها أحد من الناس

أجل ، ان الوهم القديم في سعادة الحياة ، الوهم الذي حجب عني منظر التنين الهائل ، لا يستطيع ان يخدعني فيما بعد . ومهما بالغت في التفكير في نفسي لاقنع ذاتي انني لا أستطيع ان ادرك معنى الحياة ، وانني يجب أن اعيش بدون تفكير ، فانني عاجز عن العمل بهذه النصيحة ، لانني قد عشت متمردا عليها زمناً طويلا. فانا لا أقدر ان اغمض عيني عن رؤية الايام والليالي تقربني من هاوية الموت بسيرها السريع الذي لا سلطة لي على ايقافه . انني لا استطيع ان أرى غير هذا ، لانه هو الحقيقة الواحدة في الوجود وكل ماسواه كذب وتضليل . أما نقطتا العسل اللتان حجبتا عن عيني منظر هذه الحقيقة الراعبة اكثر من أية قوة غيرهما في الحياة وهما محبتي لعيلتي ومحبتي للكتابة التي اطلقت عليها اسم الفن ، فلم تبق لها سلطة على قلبي ، لان حلاوتها قد تحولت الى مرارة وعلقم.

ولذلك كنت أقول في نفسي : « عيلتي ؟ » ان العيلة،الزوجة والاولاد ، هم أيضاً مخلوقات بشرية معرضون لنفس الشقاء الذي أنا معرض له . فهم ، إما عائشون في الكذب والخداع أمام نفوسهم، أو انهم يجب ان يبصروا الحقيقة الراعبة.فلماذا يعيشون في الوجود ؟.

لماذا احبهم واعتني بهم وأربيهم وأهذبهم وأعني بأمورهم ؟ ألكي اقودهم الى اليأس الذى يملأ حياتي ؟ أو لاجعل منهم جنوداً جديدة في جيش الحمق ؟ فانا ، بما في قلبي من المحبة لهم ، لا أقدر أن اخفي عنهم الحقيقة ، لان كل خطوة يخطونها في طريق المعرفة تدنيهم من هذه الحقيقة الواحدة التي هي : « الموت ! »

« والفن والشعر ؟ » . . .

ان ما أصابته من النجاح في الكتابة ، وما احرزته من الثناء والاطراء ، كان يحملني ، في ما مضى من عمرى ، الى اقناع نفسي بأن مثل هذا العمل يجب أن أواصل القيام به على رغم معرفتي بدنو الموت الذى يذهب بكل شيء ، بكتابتي وبكل ما تحمله من التذكارات ولكن لم يطل بي الوقت حتى ادركت ان هذا وهم آخر من اوهام الحياة ، ورأيت بوضوح ، ان الفن زينة الحياة وسحرها . والحياة بعد أن خسر سحرها نفوذه في قلبي ، كيف استطيع أن اجعل غيري يرى هذا الساحر فيها ؟ عندما كنت بعيداً عن حياتي الحقيقية ، كانت تحملني مظاهر الحياة الخارجية حيث شاءت وطاب لها الهوى ، فتقنعني ان الحياة ذات معنى سام لا يمكن لاحد أن يبعد عنه ، كانت مظاهر الحياة التي تتجدد في الفن والشعر تلذ لي ويهبط الوحي على فكري ولذلك كنت افرح أن أنظر الى الحياة بمرآة الفن . ولكنني عندما جربت ان ادرك معنى الحياة ، وشعرت بضرورة الحياة لنفسي ، صارت هذه المرآة سخرية وهزءاً ملؤها الالم والحزن . ولذلك فارقتني

الطمأنينة التي كنت اجدها في مرآة الفن وصرت أرى ان كتابتي بلادة ومجلبة لزيادة في يأسي .

عندما كنت اؤمن في اعماق نفسي بان حياتي لها معنى بذاتها كان ايماني يعمل على مسرتي وكمال فرحي . ولذلك كان كل ما في الحياة من منير ومظلم من مضحك وفاجع ، من جميل مبهج وبشع مخيف ، يسليني ويعزيني . ولكنني عندما عرفت أن الحياة فاجعة راعبة لا معنى لها خسرت كل لذتي الماضية التي كنت ابصر نورها في مرآة الفنون الجميلة . وكل ما في العالم مما يسميه الناس حلاوة صار علقماً في فمي ، وانا انظر الى التنين الفاغر فاه تحتي ، والجرذين الدائبتين في قضم الغصن الذي يحملني .

ولم يقتصر الامر على هذا فقط . لانني لو عرفت ان الحياة لا معنى لها واقتصرت القضية عند هذا الحد فقط ، لكنت قبلت كل هذا ، وادركت انه قسمتي المعينة من الحياة . ولكنني لم اقدر ان اقف عند هذه الحد . لانني لو كنت كرجل يعيش في غابة وهو يعرف انه لا يوجد في الوجود غير غابته لكان حمل الحياة خفيفاً على كتفي . ولكنني كنت ، كرجل ضال في غابة فسيحة الارجاء ، وهو مع خوفه من مجرد التفكير في ضلاله يسعى الى طريق تنقذه من ضلاله ، ومع انه يعرف ان كل خطوة يخطوها من مكانه تزيده ضلالا ، فهو يرى نفسه مرغماً على المسير باقصى ما يكون من السرعة

هذا هو شقائي الاكبر في ذلك العهد المظلم . ولكي اتخلص منه كنت في كل هنيهة على اتم الاستعداد للانتحار .

الفصل الخامس

في مثل هذه الحال سألت نفسي قائلاً : « أليس من الممكن اني قد اعرضت عن شيء ، انني فشلت ان ادرك شيئاً هاماً في الحياة ؟ ام اليس من الممكن ان هذه الحالة التي تدعو الى اليأس هي حالة عامة بين جميع الناس ؟ »

ولذلك عمدت الى جميع فروع المعرفة البشرية انشد ايضاحا للمسائل الخطيرة التي كانت تعذبني. فكنت افتش عن هذا الايضاح بحرارة قلب ، وصبر طويل ، لاني لم اقدم على علمي بدافع التطفل والرغبة في قتل الوقت بما لا طائل تحته ، بل سعيت اليه بهمة ونشاط ليلا ونهاراً ، واثقاً بان فيه خلاصي من آلامي النفسية واوجاعي الروحية . نشدته كما ينشد اليائس من النجاة نجاته ، وكما تنشد الصحراء وابل المطر ولكنني لم اجد شيئاً .

نشدته في جميع جداول المعرفة . ولم يقتصر الامر على فشلي في عملي فقط ، بل وثقت كل الثقة بان جميع الذين نشدوه قبلي لم يجدوا شيئاً مثلي ، وبلغوا اخيراً كما بلغت انا الى الحقيقة الواحدة الممتلئة يأساً : وهي ان الحياة لا معنى لها .

فقد فتشت في جميع الجهات واني اشكر الحياة التي قضيتها بالدرس فوفرت لي الوسائل للتعرف بعلماء العالم وعظماء المفكرين في جميع فروع المعرفة، الذين لم يضنوا عليّ بشيء مما في مكاتبهم وفي رؤوسهم لازالة حيرتي . ولكنني لم ازدد الا حيرة . لان كل ما في العلم من الجواب على السؤال : « ما هي الحياة ؟ » عرفته من زمن بعيد .

اجل قد عرفت هذا منذ عهد بعيد ، قبل ان ادركت ان المعرفة البشرية قاصرة عن الجواب على هذا السؤال . فقد طالما خيل اليّ وانا أتأمل في تصريح العلم برزانة ودقة ان المادة لا علاقة لها بقضايا الحياة ، طالما خيل اليّ انني قد ضللت عن نقطة هامة في الموضوع ـ ولذلك كنت اقف ذليلا في حضرة المعرفة ، واهما في ان قصور الاجوبة التي كنت اعثر عليها ، او تقدم لي على هذا السؤال المهم لم يكن ناشئا عن خطأ فيها بل انما نشأ على جهلي المطبق . ولكن هذه القضية لم تكن سخرية او وسيلة للتسلية وتمضية الوقت عندي ، بل كانت شغلي الشاغل في الحياة ولذلك رأيت نفسي مضطراً في نهاية الامر الى الاعتقاد بان هذه المسائل التي كانت تخطر لي هي اعظم المسائل التي تنشد المعرفة البشرية الجواب عليها ، وان اهتمامي بها وبمعالجة الجواب عليها لم يكن خطأً مني ، بل انما هو خطأ من العلم الذي يدعي ان في مناله الجواب عليها .

ان السؤال الذي حملني وانا في الخمسين من عمري على التعلق بفكرة الانتحار هو بالحقيقة ابسط الاسئلة التي تخطر على قلب

الانسان ، وهو كائن في نفوس جميع الناس من الطفل الرضيع الى احكم الحكماء لان الحياة مستحيلة بدونه كما رأيت بالاختبار الشخصي وها أنا اعبر عنه بما يأتي

ماذا سيصير بما اعلمه اليوم وما اعلمه غدا ؟ وما الذى تصير اليه حياتى كلها ؟

او بعبارة اخرى :

لماذا يجب ان اعيش في هذا العالم ؟ ولماذا يجب ان تكون لى رغبات ؟ ولماذا يجب ان اعمل لنفسي عملا ؟

او اننا نضمه بهذه العبارة زيادة في الايضاح :

هل لحياتي من معنى يعجز عن القضاء عليه الموت الذى ينتظرنى بفارغ الصبر ؟

هذا هو السؤال الواحد المعبر عنه بصور مختلفة الذى نشدت الجواب عليه فيجداول المعرفة البشرية فوجدت ان المعرفة البشرية تنقسم تجاهه الى قسمين : قسم سلبي وقسم ايجابى : — اما الجواب على قضايا الحياة فلا اثر له لا في القسم السلبي ولا في الايجابى .

فالقسم الواحد من المعرفة البشرية ينكر وجود مثل هذا السؤال، ولكنه يقدم لك في الوقت نفسه اجوبة دقيقة على الكثير من المباحث والاستنباطات التي يستقل بها لنفسه . وهم يطلقون على هذا النوع من المعرفة اسم العلم الاختباري الطبيعي ويبنون صرحه على اساس الرياضيات . اما القسم الثاني من المعرفة فان انصاره

يقبلون هذا السؤال ولكنهم لايجاوبون عليه وهم يطلقون على معرفتهم اسم الفلسفة المجردة ويبنون هيكلها على اساس علوم ماوراء الطبيعة.

اما انا فقد شعرت في فجر شبابي بميل كلي الى الدروس المجردة ولكن الرياضيات والعلوم الطبيعية غوتني بسحرها في فجر رجولتي. وقد كنت قبل ان خطر لي هذا السؤال عن معنى الحياة - السؤال الذي نشأ في اعماقي ونما نمواً عجيبا في فكري وهو يطالب الجواب عليه بفارغ الصبر - راضيا بالاجوبة التقليدية المصطنعة التي كانت تقدمها المعرفة البشرية لفكري.

ففي حقل الاختبار الشخصي كنت اقول لنفسي :

« كل شيء ينمو ويتغير ويتعرض للاضطراب والكمال ولهذا النمو وهذا التغير شريعة ثابتة سائدة. انت جزء من الكل. فاذا تعلمت كل ما تقدر عليه عن هذا الكل، ودرست شريعة نموه وتغيره فانت ولا شك مدرك مركزك في هذه الوحدة العظيمة وبالغ معرفة نفسك ايضا »

انني اخجل باعترافي هذا ولكن مثل هذا الرأي كان يرضيني ويقنعني في عهد مضى. ومما زاد في قناعتي هذه انني انا نفسي كنت انمو في ذلك العهد، فكانت عضلاتي تتقوى وتكبر وذاكرتي تتسع وتزداد ثروتها، وقوى فكري وادراكي تسير الى الامام في كل يوم. واني بما كنت اشعر به من هذا النمو العظيم كنت اعتقد

ان شريعة نموي هذه هي هي بعينها شريعة الوجود ، وهي كافية لايضاح معنى حياتي .

ولكن جاء اخيراً العهد الذي وقف فيه نموي ، فشعرت انني عوضا عن ان انمو واسير الى الامام صرت اضعف واسير الى الوراء بكل قواي . فقد ضعفت عضلاتي ، وبدأت اسناني واضراسي بالسقوط ، فرأيت ان شريعة النمو هذه لا يمكن ان توضح لي شيئاً بل ولا يمكن ان تكون موجودة قط . فادركت حينئذ ان الذي اطلقت عليه اسم الشريعة العامة لم يكن سوى تأثير بسيط حدث في حياتي في عمر خاص فقط .

فعمدت الى هذه الشريعة في الحال ادقق في درس طبيعتها ، فادركت بعد الدرس والفحص انه يستحيل ان توجد في الوجود شرائع للنمو الدائم . وان القائل بان كل ما في الوجود الغير المحدود تام ، متغير ، متبدل ، متكمل ، انما هو اقرب الى الجنون منه الى العقل فثبت لدي اخيراً ان هذه الكلمات لا معنى لها . لان البسيط والمركب او الماضي والمستقبل ، او الافضل والاردأ ، لا اثر لوجودها في عالم الغير المحدود .

وهكذا ظل سؤالي الشخصي : « لماذا اعيش وارغب واعمل ؟» سراً غامضاً لا جواب عليه . وقد عرفت اذ ذاك إن فروع المعرفة هذه لذيذ درسها ، شيق التأمل فيها ، ولكنها كانت تظهر ، بملء الوضوح عجزها الكامل عن المجاوبة على مسائل الحياة : وهي كلما

ابعدت عن البحث في هذه المسائل المتعلقة بالحياة ازدادت قوة وحجة وكلما سعت الى الاجابة على مسائل الحياة ازدادت غموضاً ، وخسرت نفوذها وجاذبيتها للقلوب . واذا نظرنا الى فروع المعرفة التي جربت الجواب على قضايا الحياة ، مثل علوم درس الاعضاء ووظائفها والنفس وانفعالاتها ، والحياة ونشؤها ، والاجتماع وتطوره وشرائعه فاننا نرى امامنا في الحال فقراً فكريا هائلا ، وغموضاً لا حد له ، وادعاء فارغا بقدرتها على مجاوبة اسئلة لا قوة لها على الجواب عليها وتناقضا مطرداً بين المفكرين والمشتغلين بها احدهم للآخر ، بل وواحدهم لنفسه بين عشية وضحاها . واذا نظرنا الى فروع المعرفة التي لم تهتم بقضايا الحياة ، بل حصرت جهودها بالسعي وراء الجواب المقنع على المسائل العلمية المختصة بها ، فاننا نضيع بين امواج بحر الاعجاب بالذكاء البشري ، ولكننا نعرف قبل ذلك اننا لن نهتدي الى الجواب المنشود على اسئلتنا المتعلقة بالحياة نفسها ، لان فروع هذه المعرفة تتجاهل قضية الحياة وتعرض عنها كأن لا وجود لها .

واليك ما يقوله انصار هذه المعرفة : « نحن لا نقدر ان نقول لك ما انت ، ولا لماذا تعيش في هذا العالم ، فاننا لا ندرس مثل هذه المسائل . ولكن اذا اردت ان تعرف شرائع النور ، والالفة الكيماوية ، ونمو الكائنات العضوية ، واذا رغبت في معرفة الشرائع التي تسود على الاجسام المختلفة ، واشكال هذه الاجسام ، وحجمها ، وعلاقتها احدها بالآخر ، واذا اردت ان تعلم شرائع

فكرك فنحن قادرون ان نقدم لك اجوبة دقيقة واضحة على كل ذلك . » ان علاقة العلم المجرد بمسئلة معنى الحياة تلخص بما يأتي :

سؤال : « لماذا اعيش في هذا العالم ؟ »

جواب : « ان ذرات صغيرة ، لانهاية لصغرها ، تمتزج بعضها ببعض ، بصورة غير متناهية في فضاء غير متناه ، وزمان غير متناه ، وتغير شكلها بصورة غير محدودة ولا متناهية . فاذا تعلمت شرائع هذه التغييرات ادركت في الحال لماذا تعيش في هذا العالم . »

كثيراً ما كنت اناجي نفسي في تأملاتي قائلا : « ان العلل الروحية قائمة على اصل شجرة حياة الانسان ونموه وهذه العلل هي المبادىء العظمى التي تسود حياته باسرها . واعظم ما تظهر به هذه المبادىء العظمى في الدين ، والعلوم ، والفنون ، ونظم الحكومات المختلفة . وهذه المبادىء سائرة الى الامام ، مرتقية الى العلاء درجة درجة ، الى ان يبلغ الانسان قمة صلاحه . انني عضو في المجتمع البشري ، وجزء من الانسانية ، ولذلك فان الواجب يدعوني ان اقوم بقسطي من العمل . الصالح بنشر مبادىء الانسانية هذه وتعزيزها في حياة الناس . »

قد رضيت بهذه الافكار في ايام ضعفي العقلي . ولكن عندما عرضت لي قضية الحياة قضت كل هذه الآراء في اعماقي كأنها لم تكن فاذا اعرضنا عن ايضاح السفسطة الخبيثة التي تستخدمها المعرفة التي من هذا النوع لتظهر النتائج الخاصة التي وصلت اليها من درس جزء

صغير من الانسانية كأنها نتائج عامة للانسانية قاطبة ، واذا اغمضنا الطرف عن التناقض الغريب ، الذي لا اول له يعرف ولا آخر يوصف ، بين زعماء هذه النظرية ، والخلاف المستحكم بينهم في تحديد مبادىء الانسانية ، فاننا لا نقدر ان نتجاهل الغرابة ، بل الجنون ، الذي في مثل هذا النوع من التفكير ، الذي يعلمنا اننا قبل ان نجيب على السؤال الذي يسأله كل انسان « من انا ؟ » او « لماذا اعيش في العالم ؟ » أو « ما الذي يجب عليّ عمله ؟ » يجب علينا اولا أن نجاوب على هذا السؤال :

« ما هي حياة تلك البشرية أو الانسانية المجهولة منا ، التي لا نعرف منها سوى جزء صغير في قسم من الوقت ؟ »

فلكي يفهم الانسان حقيقة ذاته يجب عليه والحالة هذه ان يعرف حقيقة الانسانية السرية ، التي تتألف من ملايين الناس الذين يجهلون حقيقة ذواتهم مثله ..

اعترف بملء الامانة انني آمنت من صميم قلبي بمثل هذا الرأي في عهد مضى من حياتي . وكان لي في ذلك العهد مبادىء عزيزة اكيف بموجبها تخيلاتي ، وطالما جاهدت لاؤلف بواسطتها نظرية جديدة تخولني ان انظر الى اوهامي نظرتي الى شريعة الانسانية المقدسة . ولكن حالما شعرت في اعماقي ، بالسؤال الذي نما في فكري عن معنى الحياة ، زالت هذه النظرية ولم يبقَ لها اثر في ذهني . فادركت في الحال انه كما ان في المعرفة الاختبارية او

الحسية علوما حقيقية وعلوما وهمية تجرب الجواب على مسائل خارجة عن دائرة صلاحيتها ، هكذا نجد في دائرة المعرفة النظرية فلسفات فاسدة كثيرة تحاول الجواب على ما هو فوق دائرة عملها.. ولذلك نرى المتمسكين بعلم الفقه ، وعلم الاجتماع التاريخي ، يشتغلون بحل القضايا المتعلقة بالانسان وحياته ، بواسطة حل القضية العظمى ، بالنسبة الى هذه وهي قضية حياة الانسانية العامة وقلما يتفق اثنان منهم على امر واحد .

ولكن كما ان الانسان الذي يسأل بحرارة : « كيف يجب ان اعيش؟ » لا يستطيع ان يقتنع بالجواب الذي تقدمه له العلوم الطبيعية ، وهو ! « ادرس في زمان غير محدود ، وفضاء غير محدود ، الوحدة غير المحدودة ، للاجزاء الغير المحدودة ، المتحدة بعضها ببعض ، والمتغيرة بصورة غير محدودة ، ومتى عرفت كل هذا تدرك بالحقيقة معنى حياتك وحقيقتها ! » هكذا يعجز الرجل الخاص عن الاقتناع بالجواب الذي يقدمه له العلم النظري بقوله : « ادرس حياة الانسانية العامة ، وحينئذ ولو جهلت بداءتها ونهايتها ومعرفة الاجزاء التي تتألف منها فأنك بالحقيقة تعرف معنى حياتك . »

فالعلوم الطبيعية والعلوم النظرية سواء تجاه قضية الحياة ، لان اهتمام اصحابها بمباحث خارجة عن دائرة ادراكهم يجعل آراءهم من هذا القبيل كثيرة الغموض ، ممتلئة بالاغلاط الفاضحة ، والمناقضات المضحكة . فقضية العلوم الطبيعية هي تعاقب العلة

والمعلول في المظاهر المادية للحياة ، وفي منال المشتغلين بهذه العلوم البلوغ الى جواب يصح السكوت عليه في هذه القضية . ولكن اذا عرضت لهم قضية خارجة عن مالية الحياة ، تاهوا في ظلمة التخمين والظنون وخبطوا خبط عشواء في ليلة ظلماء . وقضية العلوم النظرية منحصرة في تصور وجود الحياة عن غير طريق تعاقب العلة والمعلول في المظاهر المادية للحياة . فاذا عرضت للمشتغلين بهذه العلوم قضية من هذا النوع ، وقفوا تجاهها حيارى لا يفقهون ما يقولون .

للعلوم الطبيعية اهمية وضعية فائقة ، لأنها تظهر لنا عظمة القوة الفكرية التي أعطيناها للبحث والدرس ، على شرط ان لاتخرج عن دائرة مباحثها المادية المجردة وللعلوم النظرية اهمية كبرى في الحياة ، لأنها تظهر عظمة الخيال الكائن في فكر الانسان ، اذا حصره صاحبه في دائرته المختصة به ، ولم يذهب الى ما ليس من خصائصه خارج حدود علوم ما وراء الطبيعية والفلسفة .

اما الطريقة التي عبرت بها هذه العلوم عن سؤالنا الحاضر فكما يأتي : « ما انا ؟ وما هو الوجود باسره ؟ ولماذا وجدت انا ؟ ولماذا وجد هذا الوجود ؟ » وقد اجابت هذه العلوم على هذا السؤال بطريقة واحدة . مهما تنوع الاسم الذي يطلقه الفيلسوف على مبدأ الحياة الكائن في اعماقي وفي اعماق جميع الكائنات الحية ، سواء دعاه فكراً ، أو جوهراً ، أو روحاً ، أو ارادة فهو لا يبرح على

ممر العصور يعترف بانه حقيقة ، ويصرح بان لي وجوداً حقيقياً ، ولكنه لا يعرف لماذا وجدت ، ولا يحاول ان يجاوب على هذا السؤال ، اذا شاء ان يكون مفكراً دقيقاً ، لان مثل هذا الجواب خارج عن دائرة ادراكه

انني اسأل قائلاً : « ولماذا وجدت هذه الحقيقة ؟ وماذا يصير اليه كيانها الآن وفي المستقبل ؟ » فالفلسفة لا تعجز عن الجواب على هذا السؤال فقط ، بل تجد نفسها مضطرة الى سؤال مثله . واذا شاء المشتغلون بها ان يحتفظوا بغايتها الاولية في عملها ، وجب عليهم ان يضعوا هذا السؤال بصيغته الواضحة ، ويثبتوا أبداً على الاعتصام بمجاوبة السؤال الاول : « ما انا ؟ وما هو الوجود باسره ؟ » هكذا : « كل شيء ولا شيء . » اما السؤال الثاني : « لماذا وجدت انا ؟ ولماذا وجد هذا الوجود ؟ » فيجب الجواب عليه هكذا « لا اعرف . »

على هذا السؤال كنت افحص اجوبة الفلاسفة النظريين ، وادرسها ، واقلبها ، وانا لا اجد جواباً على سؤالي : ولو اقتصر أمري في العلوم النظرية ، على ما كان في العلوم الطبيعية ، ان الاهتداء الى ان الجواب على سؤالي خارج عن منطقة مباحثها — لكنت قنعت ورضيت ، ولكن هذه الاخرى — العلوم النظرية — زادت حيرتي ، لانها على رغم ما بذله فلاسفتها من الجهود الكثيرة ، اوضحت اخيراً

انه ما من جواب لسؤالي ، الذي وضعوه امام عيني بصورة اكثر تعقيداً وصعوبة من قبل .

الفصل السادس

وفي تفتيشي عن حل لقضية الحياة ، كنت اشبه الرجل الضائع في غابة ، يقبل على سهل فسيح ، فيتسلق شجرة ، وينظر من اعلاها سهولا واسعة لاتقف العين على آخرها ، ولا مأوى يلجأ اليه فيها — يرى كل هذا فيدرك ان ليس فيها احد ينقذه ، فيرجع الى الاحراج ، يتخبط في دياجير ظلمتها . ولا يهتدي الى ضالته المنشودة .

على هذا المنوال ضلت بي السبيل في المعرفة البشرية ، فلم اجد لي ملجأ ، لا في نور العلوم الرياضية والطبيعية ، التي كانت سبلها مفتوحة امامي ، ولا في ظلمة الفلسفة ، التي كانت تقودني كل خطوة فيها من السيء الى الاسوأ ، ومن المظلم الى الاكثر ظلاما — الى ان ثبت لدي اخيراً انه لم يكن ، ولن يكون في الوجود شيء مما افتش عنه . لانني عندما تبعت نور العلم ، الذي يتوهم الناس قدرته على حل قضايا الحياة ، كنت اجد نفسي ابعد كثيراً عن الحقيقة التي أنشدها . وكلما وضحت سماء المعرفة المنبسطة فوقي ، وزادت تفاوتها ، وتعاظم سحرها وتعمقت في ادراك اسرارها ، والاطلاع

على دقائقها ، كنت اجدها بعيدة عن قضاء حاجتي ، قاصرة عن مجاوبتي على مسائلي

ولذلك قلت في نفسي : « انني اعرف الان كل ما تدعي العلوم معرفته . ولكن الجواب على سؤالي المتعلق بمعنى حياتي لا يمكن ان احصل عليه بهذه الطريقة . »

رأيت أيضاً ان الفلسفة ، التي قد تكون غايتها الاولى في البحث عن المسائل التي ابحث انا عنها ، لم تقدر ان تقدم لي سوى الجواب الذي قدمته انا لنفسي هكذا .

سؤال . « ما هو معنى حياتي ؟ »

جواب . « لا معنى لها . »

او بعبارة أخرى :

س : « ما مصير حياتي ؟ »

ج : « لا شيء . »

او س : « لماذا يوجد في الوجود كل ما هو موجود ؟ »

ج : « لانه موجود . »

عندما أقبلت على درس احد فروع المعرفة البشرية الوضعية وجدت كثيراً من الاجوبة الدقيقة على مسائل لم يخطر لي قط ان اسألها : مثل التركيب الكيماوي للمواد المتألفة منها النجوم ، وحركة الشمس حول برج هرقل ، واصل انواع الاحياء ومنها الانسان ، والذرات الصغيرة التي يتألف منها الاثير . ولكن الجواب الوحيد الذي قدمه

العلم في تفسير معنى حياتي كان كما يأتي

« انت كما تسمي حياتك ، اتحاد موقت من الذرات المختلفة ، والحركة المشتركة بين هذه الذرات بعضها مع بعض قد اوجدت ما تسميه حياتك . وهذا التجمع بين الذرات المتألف منها جسدك ، تظل له حركته زمناً محدوداً ، تهدأ حركة الذرات بعده ، فتنتهي بهدوئها هذه القوة التي تسميها حياتك ، وبانتهائها يقضى على جميع هذه المسائل التي تشغل فكرك اليوم . انت كتلة متجمعة اجزاؤها المجهولة بعضها مع بعض بطريق الصدفة . وهذه الكتلة تتجدد اجزاؤها من حين الى حين . وهذا التجدد يطلق عليه الناس اسم الحياة . ولكن هذه الكتلة لا تلبث ان تتلاشى ، فيبطل تجددها ، وتزول معه كل المسائل والشكوك . »

هذا هو الجواب الذي حصلت عليه من الجهة الدقيقة للمعرفة البشرية الوضعية ، التي لا تستطيع ، اذا اخلصت لمبادئها ، ان تقدم غيره جواباً .

ومثل هذا الجواب يبرهن ، ان هذه العلوم لا تقدر ان تجاوب على سؤالنا الحاضر . لانه بايضاحه لي ان حياتي ذرة محدودة من غير المحدود وغير المتناهي لا يقصر عن الجواب على سؤالي فقط ، بل يقضي كل رجاء في قلبي بان لحياتي معنى يستحق ان اعيش لاجله

اما الحل المظلم الذي تقدمه هذه العلوم الوضعية الطبيعية للتوفيق بين نظرياتها ونظريات العلوم الفلسفية : بقولها ، « ان معنى الحياة

الحقيقي قائم في حصر قواها بالسعي وراء التقدم فانه لا يمكن أن ينظر اليه بعين الاعتبار .

فان العلوم النظرية الفلسفية المتمسكة بمبادئها الاساسية قد أجابت في جميع الاجيال ، كما تجاوب اليوم ، على هذا السؤال بالصور التالية :

« الوجود ابدي خالد وغير مدرك . وحياة الانسان جزؤ صغير غير مدرك من الوجود الكلي الغير المدرك . »

وهكذا تركت كل الآراء التي لجأ اليها الناس ، للتوفيق بين العلوم الطبيعية والعلوم النظرية ، واطلقوا عليها اسم العلوم الشرعية والاقتصادية والتاريخية . لاننا في هذه العلوم أيضاً نرى تصوراً كاذبا للتقدم والكمال . فبعد ان كان التقدم فيما مضى شاملا كل شيء أصبح الآن منحصراً في الحياة البشرية . والتقدم والكمال سواء كانا في الكل أم في الجزء ، لا غاية لهما ، ولا محجة يسيران اليها ، ولذلك لا يمكن ان يجاوبا على سؤالي .

. . من جميع ما تقدم رأيت ، بملء الوضوح ، ان العلوم النظرية الدقيقة ، والفلسفة المخلصة لغايتها ومبادئها ، التي لا يهم المشتغلين بها ما يحصلون عليه من النفع أو الخسارة في سبيلها لا تستطيع أن تجاوب على قضيتنا الحاضرة الا بالجواب الذي قدمه سقراط ، وشوبنهور وسليمان وبوذا .

قال سقراط وهو يستعد للموت : « نحن ندنو من الحق كلما

بعدنا عن الحياة . » فلماذا نحن الذين نحب الحق نسعى وراء الموت؟ لكي نتحرر من الجسد والاوجاع التي ترافق الحياة فيه . فاذا كان الحال هكذا ، فكيف يجوز لنا ان نخاف من دنو الموت ؟

الحكيم ينشد الموت في كل ساعة من حياته ، ولذلك فالموت لا يرعب الحكماء . وهذا نفس ما عبر عنه شوبنهور بقوله :

« ان المبدأ الاساسي لكل ما في الوجود هو الارادة . وفي جميع مظاهر الوجود ، من قوات الطبيعة الغير العاقلة ، الى جهود الانسان العاقل ، لا نستطيع أن نرى أثراً لوجود قوة غير هذه الارادة . ولذلك لا نقدر أن نهرب من النتيجة المنطقية التالية : اذا انكرنا هذه الارادة ، وقضينا على وجودها، فان كل مظاهر الوجود تزول في الحال بزوالها . فان لجميع الجهود ، والعواطف التي نراها أمام عيوننا اليوم ، نهاية لا بد منها . وكل ما في الوجود من الكائنات الحية ، والغير الحية ، صائر في يوم من الايام الى العدم ، بزوال الارادة التي تريده ، وتحبه ، وتتمتع به . فاذا بطل وجود هذه الارادة ، فان الوجود بأسره يضمحل ويتلاشى. ولكن هذا المصير الى العدم تعارضه طبيعتنا ، وتخالفه رغبتنا في الحياة، التي تعمل على وجودنا ، ووجود العالم الذي نعيش فيه . فالوجود بأسره ما هو عند التحقيق الا هذه الرغبة التي في أعماقنا ـ الرغبة في الحياة التي تحملنا الى الخوف من المصير الى العدم . وهذه الرغبة العظمى في الحياة لا توضح لنا من أسرار حياتنا سوى: ان الحياة كلها هي هذه

الارادة أو الرغبة في المعيشة وا كثر من هذا لا نعرف شيئاً لاجل هذا نرى اننا بعد انتهاء رغباتنا الكثيرة ، والقضاء الاخير على ارادتنا . لا يبقى من أثر لحياتنا وتصبح لا شيء . وكل ما في هذا الوجود من الكائنات ، والشموس ، والمجرات هو لا شيء بعد زوال ارادتنا أو حياتنا : لان وجوده ، أو بالحري شعورنا بوجوده ناشيء عن وجود هذا الشعور فينا ، ولذلك فهو زائل بزوال هذا الشعور فينا

واليك مايقوله سليمان في هذا الموضوع : باطل الاباطيل يقول الجامعة . باطل الاباطيل كل شيء باطل . أي فائدة للبشر من جميع تعبهم الذي يعانونه تحت الشمس ؟ جيل يمضي ، وجيل يأتي ، والارض قائمة مدى الدهر . . . ما كان فهو الذي سيكون ، وما صنع فهو الذي سيصنع ، فليس تحت الشمس شيء جديد . رب أمر يقال عنه أنظر هذا جديد. بل قد كان في الدهور التي سلفت قبلنا ليس من ذكر لما سبق ، ولا الذي يستقبل يكون له ذكر عند الذين يأتون من بعده

« انا الجامعة ، ملكت على اسرائيل باورشليم . فوجهت قلبي ليطلب ، ويبحث بالحكمة ، عن كل ما صنع تحت السماء : فاذا هو عناء رديء جعله الله لبني البشر ليعتنوا به . رأيت جميع الاعمال التي عملت تحت الشمس. فاذا الجميع باطل وكآبة الروح. لقد ناجيت قلبي قائلا : هانذا قد عظمت ، وازددت حكمة فوق كل من كان قبلي باورشليم ، واكثر قلبي من مطالعة الحكمة والعلم . ووجهت

قلبي لمعرفة الحكمة ، ومعرفة الجنون والحماقة ، فعرفت ان هذا أيضاً كآبة الروح . لان في كثرة الحكمة كثرة الغمة ، ومن ازداد علماً فقد ازداد كربا .

« ثم ناجيت قلبي قائلا : هلم قابلوك بالفرح . واذا هذا أيضاً باطل . قلت للضحك فيك جنون ! وللفرح ، ماذا تنفع ؟ أجلت في قلبي ان أعلل جسدي بالخمر ، وقلبي متصرف بالحكمة ، وان اختبر الحماقة حتى أرى ما الخير لبني البشر فيصنعوه تحت السماء مدة أيام حياتهم . فاتخذت أعمالا عظيمة : بنيت لي بيوتا ، وغرست لي كروما وانشأت لي جنات وفراديس ، وغرست فيها اشجارا من كل ثمر وصنعت لي برك ماء لاسقي بها الخمائل النامية الاشجار . واقتنيت عبيداً واماء ، وكان بيتي عامراً بالبنين ، ورزقت مواشي كثيرة من البقر والغنم ، حتى فقت جميع الذين كانوا قبلي باورشليم . جمعت لي فضة وذهبا ، مع أموال الملوك والاقاليم ، واتخذت لي مغنين ومغنيات واصناف لذات بني البشر ، وحليلة وسراري ، فزدت عظمة ونموا على جميع الذين كانوا قبلي باورشليم . والحكمة أيضاً لم تبارحني ، وكل ما ابتغته عيناي لم ادعه يفوتها ، ولا منعت قلبي من الفرح شيئاً ، بل فرح قلبي بكل تعبي ، وكنت احسب ان ذلك هو حظي من تعبي كله . ثم التفت الى جميع أعمالي التي عملت يداي ، والى ما عانيت من التعب في عملها ، فاذا الجميع باطل وكآبة الروح ولا فائدة في شيء تحت الشمس !

« ثم التفت لانظر في الحكمة ، والجنون ، والحماقة ... فرأيت ان الحكمة تفضل الحماقة ، كما ان النور يفضل الظلمة .

للحكيم عينان في رأسه ، أما الجاهل فيسير في الظلمة . لكنى علمت أيضاً ان حادثة واحدة تحدث لكليهما . فقلت في قلبي : ان الذي يحدث للجاهل يحدث لي أنا أيضاً . اذن، فلم حكمتي هذه الوافرة فقلت في قلبي هذا أيضاً باطل ! فانه ليس من ذكر للحكيم وللجاهل كليهما الى الابد ! اذ في الايام الآتية كل شيء ينسى . وا اسفا ! يموت الحكيم كالجاهل !

« فكرهت الحياة اذ ساء في العمل الذي يعمل تحت الشمس لانه كله باطل وكآبة الروح ! وكرهت جميع ما عانيت تحت الشمس من تعبي الذي سأتركه لانسان يخلفني ... فأي فائدة للانسان من جميع تعبه ومن كآبة قلبه التي عاناها تحت الشمس ؟ فانما أيامه كلها أحزان ، وأعماله كروب ، حتى في الليل لا يستريح قلبه. هذا أيضا باطل ! ليس في يد الانسان أن يأكل ويشرب ويجني نفسه ثمرة تعبه : فاني رأيت هذا انما هو من يد الله . .

« كل يصاب بكل . وحادث واحد للصديق والمنافق، للصالح والطاهر وللنجس . للذابح ولغير الذابح . مثل الصالح مثل الخاطي والذي يحلف كالذي يتقي الحلف . وشر ما يجري تحت الشمس ان حادثاً واحداً للجميع ، فتمتلىء قلوب بني البشر من الخبث ، وصدورهم من الجنون في حياتهم، وفيما بعد يصيرون الى الاموات »

« ان كل من يشارك الاحياء في أية حالة كانت ، له رجاء لان الكلب الحي خير من الاسد الميت.والاحياء يعلمون انهم سيموتون. أما الاموات فلا يعلمون شيئاً وليس لهم من جزاء بعد،اذ قد نسي ذكرهم . حبهم ، وبغضهم ، وغيرتهم ، قد هلكت جميعاً ، وليس لهم حظ بعد في شيء مما يجرى تحت الشمس »

هكذا تكلم سليمان أو الرجل الذي كتب سفر الجامعة وهذا مايقوله حكيم هندي عظيم

حدث مرة ان سيكاموني ، الوارث الشرعي السعيد لعرش مجيد ، الامير الذي حظر عليه ان يرى المرض والشيخوخة والموت فيما هو يسير خارج قصره ، رأى شيخاً راعب المنظر ، محدودب الظهر ، لا أسنان في فمه . واذ رأى الامير ، الذي لم ير قبل ذلك شيخاً قط ، هذا المنظر البشع تعجب في ذاته ، وسأل سائق عربته جلية الامر ، ولماذا كان ذلك الرجل في تلك الحالة المحزنة . وعندما عرف ان هذه الحالة شاملة جميع الناس ، وانه هو نفسه ، الامير الشاب انئذ ، سيصير يوما ما الى تلك الحالة أمر سائق العربة ان يرجع به الى قصره ليتسع له الوقت للتفكير في كل هذا . وهنالك دخل مخدعه ، واغلق بابه ، وشرع يفكر في هـذه الحالة الكئيبة وحيداً منفرداً عن الناس . ولعله اهتدى الى فكر حصل بواسطته على التعزية ، ولذلك نراه مرة ثانية يخرج بعربته سعيداً فرحا طالبًا للنزهة . بيد انه لم يبعد كثيراً ، حتى رأى مريضاً يئن متوجعاً ،

وقد فارقته صحته ، وذوت نضارة وجهه ، فاظلمت عيناه ، وتغير لون بشرته . واذ رأى الامير ، الذي لم يعرف شيئاً عن المرض من قبل ، ذلك المريض سأل سائق العربة عن حقيقة الامر فاخبره ان المرض ضعف يطرأ على جميع الاجساد ، وانه هو الامير السعيد ، الفرح بالحياة ، قد يمرض في ساعة لا يعلمها ، ويصير الى مثل الحالة التي كان فيها الرجل المريض الواقف أمامه . فحزن الامير اذ سمع كل هذا ، وفارقته رغبته في النزهة ، وأمر السائق أن يرجع به في الحال الى منزله . وهنالك نشد تعزيته وسلام فكره . وقد يكون وجدهما الى حين ، لاننا لا نلبث ان نراه في العربة للمرة الثالثة طلباً للنزهة خارج القصر . ولكنه رأى في هذه المرة شيئاً جديداً ، رجالا يحملون محملا ويسيرون به في الشارع . فسأل السائق قائلا :

« ما هذا ؟ »

فأجابه . « رجل ميت »

قال الامير : « وماذا تعني بقولك رجل ميت ؟ » فاخبره ان الرجل الميت هو رجل مثل الذي يحمله الناس في المحمل أمامه .

« فنزل الامير من العربة وأمر الحاملون ان يقفوا فدنا من المحمل ، ونزع عنه الغطاء ، ونظر في الجثة التي فيه .

ثم سأل قائلا : « وماذا سيصير اليه هذا الرجل؟ »

فأخبروه ان الجثة ستدفن في الارض .

فقال لهم : « ولماذا ؟ »

فقالوا : « لانه لن يعيش فيما بعد وسيخرج الدود والنتن منه اذا لم يدفنوه . »

فسألهم الامير : « وهل هذه قسمة عامة لجميع الناس ؟ وهل أصير أنا الى مثل هذه الحالة ؟ هل ادفن تحت الارض فانتن وامسى مطعما للدود ؟ »

فقالوا : « نعم »

فصرخ بالسائق قائلا : « ارجع بي اذن الى منزلي فلن أخرج منه بعد اليوم ، ولن أعرف النزهة في حياتي . »

وهكذا نرى أن سيكاموني لم يجد طمأنينة في الحياة ، ولذلك ثبت لديه انه شر عظيم جداً ، وبذل كل قوته ليحرر نفسه واصدقاءه منها لكي لا تتجدد بعد الموت بل تستأصل من جذورها هنا على الارض . بمثل هذا يعلم جميع حكماء الهند .

والى القراء الادباء الاجوبة التي رأت الحكمة البشرية ان تقدمها على قضية الحياة .

فالحكيم سقراط يقول : « حياة الجسد در وكذب ، ولذلك فان القضاء على هذه الحياة خير يجب أن نسعى اليه بامرنا »

والحكيم الالماني يقول : « الحياة هي عكس ما يجب أن تكون فهي شر كبير عوضاً عن أن تكون خيراً كبيراً . والعبور منها الى لا شيء هو الخير الوحيد في الحياة . »

وسليمان الحكيم يقول : « كل ما في العالم : الحماقة والحكمة ،

الغنى والفقر ، والفرح والحزن، كل هذا باطل ولا قيمة له فالانسان يولد ويموت ولا يبقى منه شيء ، وهذا أيضاً باطل . »

والحكيم الهندي يقول: «أن الذي يعرف أن الالام،والامراض والشيخوخة ، والموت كؤوس لا بد من شربها يستحيل عليه ان يعيش برغد . ولذلك يجب أن تتخلص من الحياة وتنجو من امكانيتها .

والذي قاله هؤلاء الحكماء العظماء قد فكر فيه ملايين اللايين من الناس وشعروا به . وانا أيضاً فكرت فيه وشعرت بمثله الحياة كلها . »

وهكذا فان سياحتي في حقول المعرفة البشرية لم تقتصر على الفشل في شفائي من يأسي بل زداتني يأساً وشكاً . فالفرع الواحد من المعرفة يقف صامتا تجاه السؤال عن معنى الحياة . والفرع الثاني أجابني جوابا صريحاً ثبت يأسي ، وأرانى أن الحالة التي انا فيها لم تكن نتيجة لضلالي أو ضعفاً طرأ على دماغي ، بل انها كانت على العكس من هذا تؤكد . لي انني انما أفكر بدقة ، وان آرائي متفقة مع النتائج الكبرى التي انتهى اليها أقدر مفكري الانسانية .

لذلك لم أستطع أن أخدع فكري . كل شيء باطل ! وكل مولود امرأة تعس شقي ! الموت خير من الحياة ! والحكيم من ينزل عن كتفيه حمل الحياة الثقيل فيتخلص من الحياة مدى الدهر .

الفصل السابع

وبعد أن فشلت عن الاهتداء الى ضالتي في المعرفة والعلم والفلسفة شرعت أنشدها في الحياة نفسها ، مؤملا أن أجدها في الناس المحيطين بي. فبدأت أراقب الرجال الذين مثلي، والاحظ كيفية معيشتهم ، وموقفهم تجاه السؤال الذي حيرني وقادني الى اليأس :

والى القارىء الأديب النتيجة التي وجدتها بين من هم مثلي في مركزهم الادبي والاجتماعي

وجدت أن أبناء الطبقة التي انا منها يلجأون الى وسائل اربع للهرب من الحياة الراعبة التي كنا فيها كلنا

واول هذه الوسائل الجهل . فان أصحابه لا يدركون ، ولا يريدون أن يفهموا ، أن الحياة شر ، وكل ما فيها باطل وقبض الريح . أن أبناء هذه الطبقة، واكثرهم من النساء أو الشبان الصغار وبعض الرجال الاغنياء ، لم يفهموا قضية الحياة ولم ينظروا اليها كما نظر اليها شوبنهور وسليمان وبوذا . فهم لا يرون الوحش الذي ينتظرهم ليفترسهم ولا الجرذين اللذين يقرضان الغصن المتعلقة عليه حياتهم ، ولذلك يلحسون نقط العسل القليلة التي يشاهدونها حواليهم برغبة ولذة . ولكنهم يلحسون هذا العسل الى أجل مسمى ، لانهم لن يلبثوا أن يجدوا مايلفت انظارهم الى الوحش ، والجرذين ، وحينئذ تفارقهم لذتهم ورغبتهم معا . من هؤلاء وامثالهم لم اقدر

أن أتعلم شيئاً ، لان الانسان يتعذر عليه أن يتجاهل ما هو واثق بمعرفته .

ووسيلة الهرب الثانية هي الوسيلة التي يلجأ اليها الشهوانيون وعباد اهوائهم الجامحة . وهي تقضي على اصحابها أنهم بالرغم من معرفتهم أن كل ما في الحياة من اللذيذ والجميل باطل عند التحقيق ، يجب أن يغمضوا عيونهم عن رؤية الوحش والجرذين ، ويطلبوا في الوقت نفسه كل ما يمكنهم الحصول عليه من عسل الحياة ، وخصوصاً حيث يوجد الكثير منه . وقد اشار سليمان الى هذا بما يأتي :

« فمدحت الفرح ، لانه ليس في يد الانسان خير تحت الشمس غير أن يأكل ويشرب ويفرح ، فهذا يثبت له من تعبه أيام حياته التي منحها الله له تحت الشمس . . فأذهب كل خبزك بفرح ، واشرب خمرك بقلب مسرور ... تمتع جميع أيام حياتك الفانية ، بالعيش مع المرأة التي احببتها وأوتيتها تحت الشمس ، لتقضي ايامك الفانية فان ذلك حظك من الحياة ، ومن تعبك الذي تعانيه تحت الشمس كل ما تصل اليه يدك من عمل فاعمله بجميع قوتك ، فانه لا عمل ، ولا حسبان ، ولا علم ، ولا حكمة ، في القبر الذي انت صائر اليه . »

على هذه الصورة يقضي اكثر أبناء طبقتنا حياتهم . فان الحالة التي يوجدون فيها توضح لهم الجميل في الحياة ، وتحجب عن عيونهم البشع والشرير . وما في آدابهم من البلاهة يمكنهم من نسيان حقيقة هم في حاجة الى معرفتها : وهي ان كل الفرص التي يقدمها

لهم مركزهم هي شواذ لا يقاس عليه ، لان الذي يمتع به سليمان من طيبات الارض لايتاح الا للقليلين من اصحاب الملايين . وان مقابل كل رجل له ألف امرأة مثل سليمان يوجد ألف رجل لاامرأة له ، وكل قصر عظيم يحتاج ، قبل أن يتم بناؤه ويتمتع به صاحبه ، الى ألف رجل يبنونه باعراقهم واتعابهم ، وان الفرصة التي جعلتني مثل سليمان اليوم كثيراً ما تنقلب فتجعلني كعبيد سليمان في الغد . ولكن حماقة هؤلاء الناس ، وبلادة تصورهم ، تساعدان على وضع برقع غليظ امام عيونهم فيتعامون عن رؤية العوامل التي قضت على سعادة بوذا : وهي المرض ، والشيخوخة ، والموت ، وكلها لا بد منها ، أن لم يكن عاجلاً فآجلا . ومتى حلت أنزلت الستار على مسرح جميع الملذات والافراح

بيد ان الاكثرية الساحقة من ابناء هذه الايام لاتريد ان تفكر الا بهذه الطريقة . ومع أن بين هذه الاكثرية فريقاً يطلق على حياة رفقائه اسم الفلسفة الوضعية ، محولا الى هذه التسمية بغباوة فكره وبلادة خياله فان هذا لايفصلهم في عقيدتي عن أولئك الذين يلحسون العسل لكي يلتهوا به عن رؤية الخطر المحيق بهم . انني لم استطع اقتفاء خطوات هؤلاء الحمقى في عقيدتي ، لانه لم يكن لي بلادة تصورهم ، وحماقة خيالهم ، ولذلك لم أقدر أن أفعل فعلهم فانني ، كجميع الراغبين في المعيشة المصحوبة بالفهم ، لم اتمكن من

تحويل عيني عن الجرذين والوحش بعد أن رأيتهما وعرفت الخطر الذي يعرضني له عملها .

والوسيلة الثالثة للهرب كائنة في الالتجاء الى القوة والعزم . وهي تأمر بالقضاء على الحياة بعد معرفة شرها وبطلانها . ولكن الذين يعملون بها هم اندر من بيضة الديك ، وهم مخاريق بقوتهم وعزيمتهم . فهم ، اذ يدركون رداءة الاضحوكة التي تمثل على حساب الاحياء ، ويعرفون أن سعادة الاموات أوفر من سعادة الاحياء ، وان عدم الوجود خير من الوجود ، يقدمون في الحال على وضع حد نهائي لهذه الاضحوكة التي يسمونها حياة باية طريقه . ممكنة : — حبل حول العنق ، أو ماء يغرقون فيه ، أو سكين يقطعون به قلوبهم ، أو قطار يقفون في طريقه فيذهب بهم ويريحهم من شقائهم أن عدد الذين يقدمون على مثل هذا العمل في طبقتنا الاجتماعية يتزايد في كل يوم ، واكثر أبنائه من الشبان والشابات الذين بلغوا شأوا واسعا من العلم ، ولكن مداركهم الداخلية لم تنضج بعد في أعماقهم

قد رأيت هذه الوسيلة الثالثة للهرب من الحياة أفضل الوسائل ووددت لو في طوقي أن اعمل بها .

والوسيلة الرابعة للهرب من الحياة قوامها الضعف . وخلاصتها أن صاحبها ، مع علمه بشر الحياة وبطلانها ، فهو يواظب على المحافظة على حياته ، على رغم معرفته أنها عقيمة لا نتيجة وراءها أن أبناء هذه الطبقة يعلمون أن الموت أفضل من الحياة ، ولكن

ليس لهم من القوة القسط الكافي لمساعدتهم على العمل بما يعرفون ولذلك يتمكسون بمخاوفهم ، ويحجمون عن الانتحار ، مترقبين وسيلة تريحهم من شر الحياة من غير أن يقتلوا ذواتهم . فالضعف وحده يعمل على مساعدة هؤلاء للهرب من شر الحياة ، لانني اذا عرفت ما هو الافضل لراحتي ، وادركت انني قادر أن أناله اذا شئت فلماذا لا أناله ؟ .... هذه هي الطبقة التي كنت أحد أبنائها.

بمثل هذه الطريقة ، وبهذه الوسائل الاربع ، ينقذ أبناء طبقتي ذواتهم من تناقض مزعج في الحياة . ومهما أجهدت فكري فانني اظل قاصراً عن الاهتداء الى طريق جديدة غير هذه الطرق الاربعة فالطريقة الاولى تقضي بان نتجاهل شر الحياة وبطلانها وتفاهتها ، ونغمض عيوننا عن رؤية الحقيقة القائلة بان الموت خير من الحياة أما أنا فلو لم اعرف هذه الحقيقة لكان الامر سهلا عليّ ولكننى بعد ان رأيتها ، لا استطيع أن اغمض عيني عن رؤيتها .

والطريقة الثانية تقضي بان نتمتع بالصالح في الحياة ، من غير أن نفكر في المستقبل . ولكنني لم أقدر أن افعل هذا قط. لانني ، كسيكاموني ، لا استطيع أن أسير بعربتي وراء ملذاتي بعد ان عرفت ان في الحياة مصائب مثل الشيخوخة والمرض والموت . ان خيالي كان قاصراً عن البلوغ الى هذه الحالة ، وفوق ذلك لم اقدر ان اقنع بالملذات المؤقتة التي لا تبهجني ساعة حتى تؤلمني عاما كاملا.

والطريقة الثالثة تقضي على الانسان الذي يعرف ان الحياة

شر وحماقة ان يضع لها حدا بالانتحار . قد فهمت هذه واجبتها ، ولكن لا ادري كيف كنت اهرب من الانتحار ولا أقدم عليه لسبب مجهول عندي

والطريقة الرابعة تقضي بان نقبل الحياة كما وصفها لنا شوبنهور وسليمان ، عالمين انها اضحوكة بليدة مزعجة، وان مجرد الحياة برهان على الهزء والسخرية بصاحبها . ولكن مع كل ذلك يجب ان نقبلها كما هي ، مغتسلين، لابسين، آكلين، شاربين ، متكلمين ، ومؤلفين كتباً أيضاً . ومع ان هذا المركز كان بعيدا عن فكري فقد رأيته أقرب الجميع الى قلبي

غير انني ادركت الآن انني لم اقتل نفسي في ذلك العهد لانني كنت اشعر في أعماقي بصورة خفية مضطربة ان آرائي مشوشة مغلوطة . فمع انني كنت اشارك الحكماء في رأيهم بان الحياة لا معنى لها ، فقد كنت في الوقت نفسه اشعر بشك في جميع النتائج التي وصلت اليها بدرسي واستطيع ان أعبر عن هذا الشك بما يأتي :

« يحدثني عقلي ان الحياة مناقضة للعقل . فان لم يكن في الوجود شيء أعلى من العقل ، والحقيقة انه ليس في الوجود اسمى من العقل أو بالحري ليس لنا برهان على مثل هذا ، فالعقل اذن هو الذي خلق لي الحياة . فكيف يستطيع هذا العقل ، والحالة هذه، ان ينكر وجود الحياة التي هو اوجدها ؟ واذا نظرنا الى الموضوع من الجهة الثانية نقول : لو لم تكن لي حياة لما كان لي عقل ، ولذلك فان العقل يحكم

الطبع هو ابن الحياة . فالحياة هي كل شيء . العقل هو ثمرة الحياة وهذا العقل نفسه ينكر الحياة التي اثمرته شجرتها . »

لاجل هذا شعرت ان في طريقة تفكيري خطأ واضحاً. فقلت في نفسي :—

« الحياة ولاشك بدون معنى . وهي شر وحماقة . ولكنني قد عشت ما مضى من عمري ، ولا ازال حياً حتى الساعة ، وهكذا عاش جميع ابناء الجنس البشري وما برحوا يعيشون. فكيف يكون هذا . لماذا يعيش جميع الناس وهم قادرون متى شاءوا ان يموتوا أم هل أنا وشوبنهور وحدنا أعطينا الفهم والعقل لندرك فراغ الحياة وشرها وبطلانها ؟ »

ان رؤية بطلان الحياة سهلة جداً، وطالما كانت واضحة لابسط البسطاء . ولكن الناس عاشوا وما زالوا يعيشون في كل ساعة . ولكن لماذا يعيش الناس . ولا يفكرون البتة في صوابية الحياة التي يحيونها ؟

ان معرفتي التي حصلتها بالدرس والبحث ، وايدتها حكمة أحكم الحكماء ، اظهرت لي ان كل ما على الارض من الكائنات العضوية وغير العضوية تحيط به وبوجوده حكمة سامية ، وليس من حماقة الا في حياتي وحدها . ولكن اولئك المجانين، ملايين الملايين من العامة الساذجة ، لا يعرفون شيئاً عن تركيب الكائنات العضوية ، وغير

العضوية في الوجود ، ولكنهم يعتقدون ان حياتهم خاضعة لشرائع حكمية معقولة جداً.

ثم فكرت في نفسي قائلا : « ولكن من يدري، فلعل هنالك أمراً لم اقف عليه بعد ويجب ان ادرسه . فان الجهل يتصرف في الغالب مثل تصرفي الحاضر فالجهل يقرر بملء الدقة كل ما يعرفه ويثق بصحته فاذا رأى شيئاً لا يعرفه يصرح في الحال انه بليد لامعنى له . فالانسانية بجماعها قد عاشت على ممر العصور ، وهي عائشة الآن ، كأنها تدرك معنى الحياة وهي لو تدرك معنى الحياة لما استطاعت ان تعيش. أما انا فاقول ان الحياة بأسرها لا معنى لها ولذلك لا اقدر ان اعيش . »

ما من أحد يمنعنا ان ننكر الحياة بالانتحار . ولكن الذي يقتل نفسه ينقطع عن البحث في الحياة والمناظرة في موضوعها. اذا كنت تكره الحياة فاقتل نفسك . واذا كنت تعيش ولا تفهم معنى حياتك فضع لها حدا ، واقلع عن حديثك وكتابتك انك غير قادر ان تفهم حقيقة الحياة . انت داخل الى جماعة فرحين مسرورين قانعين بافراحهم ، عارفين جميعهم ، ما يعملون ، ولماذا يعملونه . وانت وحدك مقطب الحاجبين ، مضطرب الفكر ، ثائر على كل شيء حولك . فلماذا لا تخرج من تلك الجماعة وتريح نفسك وغيرك ؟

وفوق كل هذا فمن نحن، الذين بعد ان اقتنعنا بضرورة الانتحار لا نجرؤ على الاقدام عليه ، لضعفنا وعدم اجماع رأينا أو بعبارة

أوضح لبلادتنا وحماقتنا التي نسير مبشرين بها كالمجانين الذين يحملون حجتهم معلقة حول أعناقهم.

ان حكمتنا مهما كانت مبنية على الحقيقة لم تمنحنا معرفة لحقيقة معنى الحياة ، ولكن الانسانية باسرها لا تشك في ان الحياة لها معنى بنفسها .

والحقيقة التي لا مرية فيها أن الناس منذ أقدم ازمنة التاريخ المعروفة قدعاشوا ، ومع أنهم عرفوا كل المسائل التي خطرت لي عن بطلان الحياة وشرورها ، فقد أعطوا الحياة معنى مختصاً بهم .

منذ بداءة حياة الناس اتخذ كل منهم رأيا لنفسه في حياته، وما رحوا يعيشون ، ولكل منهم رأيه في الحياة حتى يومنا الحاضر . وكل ما في فكري ، وما هو خارج عني طبيعيًا كان أم غير طبيعي ، فهو بالحقيقة ثمرة من أشجار معرفتهم . والقوة الفكرية التي حكمت بها على الحياة وقضيت عليها بالزوال انما هي بالحقيقة مستمدة منهم وليس مني . فهم السبب الاولي في ولادتي وتربيتي وتهذيبي . وهم الذين اقتلعوا الحديد من الارض ، وعلموا ابناءهم قطع الاشجار وتشحيلها ، وتدجين البقر والخيل ، وهم الذين أوجدوا الزراعة ، والصناعة ، وقربوا الناس بعضهم من بعض ، وربطوا مصالحهم بالقوانين والشرائع العادلة ، فجعلوا احياتنا شكلا منظما ، وعلمونا فوق كل هذا كيف نفكر وكيف نتكلم . وانا صنع أيديهم ، وابن

عناياتهم وجهودهم ، وتلميذ أفكارهم وأقوالهم ، أتى اليوم لا برهن لهم ان وجودهم بكامله لم يكن له معنى .

حينئذ قلت في نفسي : « انني ولاشك مخطيء في تفكيري . »
ولكنني مع كل هذا لم اهتد الى الغلط الذي ارتكبته .

الفصل الثامن

كل هذه الشكوك ، التي أقدر الآن ان أعبر عنها بوضوح ، لم أكن إذ ذاك قادراً ان أعبر عنها قط . لانني في ذلك العهد المظلم لم أعرف اكثر من أن أشعر بان النتائج التى وصلت اليها عن بطلان الحياة ، مع كل ما يحيط بها من البراهين المنطقية ، ويؤيدها من آراء عظماء المفكرين . فان فيها خطأ لم أعرف موضعه . أما اذا كان الخطأ في النتيجة نفسها ، أم في طريقة وضع المسألة من أصلها ، فلم أعلم . وكل ما عرفته : انني كنت أشعر ان عقلي على شدة اقتناعه بالنتيجة التى بلغتها ، لم يكن كافياً وحده للعمل بهذه النتيجة

ولذلك لم يقدر فكري أن يحملني الى العمل بما اعتقدت صحته وضرورته : يعني قتل نفسي .

واني لا أقول الصدق ، اذا قلت ان عقلي وحده قادني الى الحالة التي كنت فيها وحال دون انتحاري . فالعقل كان يعمل بغير انقطاع ، ولكن هنالك قوة غير العقل كانت تعمل معه أيضاً ،

قوة أستطيع أن أطلق عليها اسم الشعور بالحياة . فقد عملت هذه القوة في أعماقي ، فكانت تقرر مركزي العملي تجاه جميع القضايا التي يعالجها فكري ، وهي التي نشلتني من هوة اليأس التي سقطت فيها وعملت أخيراً على تغيير أفكاري باسرها . فقد علمتني هذه القوة بملء الوضوح انني مع مئات من مثلي لا نستطيع أن نؤلف الانسانية باسرها وهي نفسها أظهرت لي انني مابرحت اجهل حقيقة الحياة الانسانية

عندما كنت أراقب الدائرة الضيقة اتي تجمع أقراني في المركز الاجتماعي ، كنت أرى أناسا لم يفهموا السؤال الذي أسأله وغيرهم من الذين أدركوا حقيقة هذا السؤال ولكنهم كانوا يخفون ادراكهم له بسكرهم بخمرة الحياة. وغيرهم من الذين أدركوه ولكنهم قتلوا ذواتهم ، وأخيراً أولئك الذين فهموا حقيقة السؤال ولكنهم لضعفهم عاشوا بقية عمرهم في ظلمة الشك واليأس . ولكني لم أر غيرهم . وكان يخيل الي أن هذه الدائرة الضيقة المتألفه من المتعلمين والاغنياء والكسالى الذين كنت واحداً منهم، هي الانسانية باسرها، وأن بلايين الناس، العائشين خارجا عنها هم حيوانات وليسوا بشراً

ومهما بدا لي اليوم مثل هذا الموقف غريباً ، جنونياً ، بعيداً عن تصور العقل الصحيح ، ـ انني انا اذ أفكر في الحياة أستطيع أن أتجاهل وجود حياة الانسانية العظمى المحيطة بي من كل جنب واقع في الخطأ القائل بان حياة سليمان أو شوبنهور أو حياتي هي

الحياة الطبيعية الحق ، وأما حياة البلايين الاخرى من الناس فهي حماقة لا أهمية ولا شأن لها مهما بدأ لي كل هذا غريباً اليوم ، فهو الرأي الذي كنت أعتقد بصحته في ذلك الحين . فقد تملكني العجب والغرور بعلمي وأدبي اذ ذاك ، حتى خلت بل وثقت الثقة كلها ، بأني مع سليمان وشوبنهور قد عبرنا عن السؤال بطريقة كاملة لم يبق بعدها متسع لأحد ليصلح وضعه أو يضعه بصوره أفضل وأكمل من صورته وكنت أعتقد أن جميع ملايين الناس قد قصروا عن أدراك عمق هذا السؤال ،وأني أنا الرجل الوحيد الذي أهتم في التفتيش عن معنى الحياة . ولم يخطر لي قط أن أفكر قائلاً في نفسي : —

« ولكن ما هو المعنى الذي أعطته للحياة ، وتعطيه اليوم ، الملايين من الناس الذين عاشوا ويعيشون في العالم ؟ »

بمثل هذه الحالة الفكرية المضطربة عشت زمناً طويلا، ومع اني لم أستطع أن أعبر عنها بوضوح ، كما أعبر عنها اليوم ، فقد كانت الزم لي من ظلي كما هي شاملة اكثر المفكرين من الأحرار والمتعلمين بيد أنني لا أدري اذا كان ميلي الفطري لطبقات العمال ، الذي كان يضطرني أن أفهمهم وأرى أن غباوتهم ليست كما يصورها المفكرون أو اذا كان اخلاصي في عقيدتي انني لا أستطيع أن أعرف شيئاً سوى الذهاب الى المشنقة للتخلص من الحياة ، قد حملني الى الشعور بانني اذا كنت أرغب أن أعيش وأفهم معنى الحياة يجب ألا أنشد

ذلك بين الذين خسروا معنى حياتهم وجهلوا قيمتها ولذلك رغبوا في الانتحار ، بل يجب أن أسعى الى ذلك بين الملايين من الاحياء والاموات الذين بنوا لنا صروح الحياةالتي نتمتع بها اليوم ،وحملوا أثقال حياتهم وحياتنا فرحين .

وهكذا جعلت أراقب الحياة العامة بين جماهير الاحياء والاموات ، حياة البسطاء وغير المتعلمين والفقراء ، فوجدت فيها شيئاً يختلف الاختلاف كله عن حياة الاقلية الممتازة: وجدت أن كل هذه الملايين من العامة الاحياء ، العائشين اليوم والذين عاشوا قبلهم لم يخطر لهم أن ينضموا الى أبناء طبقتي ، ولم أستطع أن أحسبهم من الذين لا يفهمون المسألة التي قادتني الى الشقاء ، لانهم كانوا يعرفون هذه المسئلة ويجاوبون عليها بملء الدقة والوضوح. ولم أقدر أن أحسبهم شهوانيين ، لان حياتهم كانت اليفة التضحية والالم رفقية اكثر مما هي رفقة اللذة والفرح . ولا يجوز حسبانهم بين الذين يعيشون على العكس من عقيدتهم ويصبرون على الحياة وهم عارفون أن الحياة لا معنى لها ، لم أقدر أن أضع أولئك البسطاء في مصف هؤلاء لأن كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمال حياتهم حتى موتهم نفسه واضح لديهم . أما الانتحار فانه معدوم بينهم وهم يحسبونه شر الجرائم . ولذلك ثبت لدي أن في هذه الانسانية الساذجة معرفة صحيحة لمعنى الحياة عميت أنا عن الاهتداء اليها ، لاني كنت أنظر اليها نظرة الاحتقار . ومن هذا كله رأيت ان

المعرفة المبنية على أساس العقل تنكر معنى الحياة وترفضها . ولكن معنى الحياة الذي يفهمه الملايين من البسطاء مبني على معرفة سفسطائية محتقرة .

فالمعرفة المبنية على العقل ، معرفة المستقبل والحكماء ، تنكرمعنى الحياة ، ولكن أكثرية أبناء الانسان يتمسكون بمعرفة لا أثر للعقل فيها وهذه المعرفة تثبت لهم ان للحياة معنى سامياً .

وهذه المعرفة التي لا سلطان للعقل عليها هي الايمان الذي لم أقدر أن أقبله . ولذلك لم أستطع أن أسلم بوجود أقانيم ثلاثة في إلاه واحد، او بخليقة الملائكة والابالسة في وقت واحد وخليقة العالم في ستة أيام . كل هذا لم أستطع أن أقبله لأني كنت مستسلماً لسلطان عقلي فقط .

كان مركزي صعباً مزعجاً . لان المعرفة التي يقدمها العقل تنكر الحياة ، والمعرفة التي يمنحها الايمان تنكر العقل، وكلا الامرين صعب علي وخصوصاً الثاني منهما . فالمعرفة المبنية على العقل قد برهنت أن الحياة شر ، وأن الناس يعرفون هذا وفي منالهم أن يقتلوا أنفسهم ويستريحوا من شر الحياة متى شاؤوا ، ولكنهم ما برحوا يعيشون في العالم وينفرون من الانتحار ، وأنا فرد منهم قد عشت طويلا عالما أن الحياة شر وحماقة لا معنى لها . ولو عشت بالايمان لقضي عليّ أن أهمل عقلي وأعرض عن تطلباته قبل أن

أستطيع أدراك معنى الحياة ولكن عقلي هو القوة الوحيدة في التي تطلب أدراك معنى الحياة فكيف يمكن أن أفهم الحياة بدونه ؟

الفصل التاسع

عند هذا الحد وقفت أمام مناقضة غريبة لم أجد سوى طريقتين للهرب منها . فاما أن يكون ما سميته معقولا لا أثر للعقل فيه كما أعتقدت وفكرت ، أو أن ما دعوته غير معقول لم يكن بعيداً عن العقل بمقدار ما خطر لي . ولذلك بدأت أفحص طريقة التفكير التي قادتني الى نتائج المعرفة المبنية على العقل

وقد وجدت بهذا الفحص أن الطريقة التي لجأت اليها صحيحة لا غبار عليها . لان النتيجة القاضية بان الحياة لا شيء لم يكن منها بد . ولكنني وجدت فيها غلطة واحدة . وهذه الغلطة هي أنني لم أحصر كل أفكاري في المسئلة التي نحن في صدد البحث عنها فقد كانت المسئلة هكذا : « لماذا أعيش ؟ أو بعبارة أخرى ، ما هو الشيء الحقيقي الغير الفاني الذي سيبقى من حياتي الخيالية الفانية ؟ ما هو معنى وجودي المحدود في هذا الوجود الغير المحدود ؟ » وقد جربت الجواب على هذا السؤال بدرس الحياة نفسها .

فظهر لي أن القرار في أي عدد من المسائل المتعلقة بالحياة لا يمكن أن يقنعني ، لان سؤالي مهما بدأ بسيطاً لاول وهلة كان يشمل وجوب ايضاح المحدود بغير المحدود والعكس بالعكس

سألت نفسي ، ما هو معنى حياتي ، بقطع النظر عن الزمان والعلة والمكان . ولكنني كنت أجاوب نفسي على سؤالي واضعاً أياه هكذا : « ماهومعنى حياتي بالنسبةالى الزمان والعلة والمكان» ولذلك كانت النتيجة أنني بعد أجهاد الفكر بالدرس والبحث وقتاً طويلا لم أهتد الى جواب قط .

ففي جميع مباحثي الفكرية مع نفسي كنت أقابل ، مضطراً ، المحدود بالمحدود ، وغير المحدود بغير المحدود ، ولذلك كانت النتيجة التي لا بد منها كما يأتي : « القوة هي القوة ، والمادة هي المادة ، والارادة هي الارادة ، وغير المحدود هو غير المحدود ، ولا شيء هو لا شيء ، » لا أكثر ولا أقل . فقد حدث لي كما يحدث في الرياضيات ، عندما نريد أن نحل معادلة يجب أن نحصل على أعداد متشابهة . فمع أن طريقة الحل صحيحة فان الجواب يأتي هكذا . ب « تساوي ب . ج تساوي ج و ل تساوي ل . هذا هو نفس ما حدث لي في تفتيشي عن معنى حياتي . فقد تشابهت عندي جميع الاجوبة التي قدمها العلماء على أختلاف طبقاتهم .

والحقيقة الواضحة أن المعرفه المبنية على العقل فقط ، المعرفة التي اعتمدها دسكرتس وعمل بها ، تبدأ بالشك العام في كل شيء والاعراض عن كل معرفة أساسها الايمان ، والتمسك بكل ما يطلبه العقل ويؤيده الاختبار ، وهي لا تستطيع أن تجاوب على السؤال عن

معنى الحياة الا بنفس الجواب الذي حصلت عليه بنفسي ، وهو جواب مبهم غامض

خطر لي أولا أن العلم قد أجاب على هذا السؤال جواباً باتاً ، وهو جواب شوبنهور أن الحياة لا معنى لها وهي شر بذاتها. ولكنني وجدت بعد البحث الدقيق ان هذا الجواب ليس بالجواب البات أبداً ، ولكن شعوري ونظري اليه جعلاه يظهر لي هكذا. اما الجواب الصريح ، الذي أجاب به بوذا وسليمان وشوبنهور معاً واهمين أنهم اصابوا كبد الحقيقة ، فهو ايضاً جواب ملتبس غير محدود ، لانه لا يظهر لنا الا ان ج تساوي ج والحياة تساوي لا شيء . وهكذا نرى أن المعرفة الفلسفية لا تنكر شيئاً ، ولكنها تجاوب أن مثل هذا السؤال لا يمكن حله بمقاييسها ، ولذلك تظل القضية غير محدودة .

وعندما بلغت هذه النتيجة ادركت أنه من العبث السعي وراء جواب على سؤالي في المعرفة المبنية على العقل ، ووثقت بأن الجواب الذي تقدمه مثل هذه المعرفة ليس الا دليلا واضحاً على أن الجواب مستحيل ما لم يوضع السؤال بطريقة أخرى تجعله شاملا للعلاقة بين المحدود وغير المحدود . وأدركت أيضاً أن الاجوبة التي يقدمها الإيمان مهما خالفت أحكام العقل وتمردت على شرائعه ، فهي تمتاز بأنها تقدم لكل سؤال العلاقة بين المحدود وغير المحدود ، وبدون هذه العلاقة لا يمكننا الحصول على جواب ما .

فكيف وضعت السؤال : « كيف يجب أن أعيش ؟ » فالجواب عليه واحد : ـ « بشريعة الله . »

س : « وهل بعد حياتي شيء حقيقي ثابت ؟ وما هو ؟ »

ج : « عذاب ابدى أو بركة أبدية »

س : « وهل في حياتي معنى لا يستطيع الموت أن يذهب به ؟ »

ج : « نعم ، وهو الوحدة مع إلاه غير محدود في الفردوس. »

على هذا المنوال وجدت نفسى مجولا الى التسليم بان وراء المعرفة العقلية ، التي كنت أعتقد انها المعرفة الحقيقية الواحدة، وجد ويوجد في كل انسان نوع آخر من المعرفة لا سلطان للعقل عليها ، وهو الايمان الذى يساعد الناس على الغبطة في الحياة .

ومع انني ظللت أعتقد ان الايمان بعيد عن أحكام العقل ، فلم أجد بداً من التسليم بان الايمان وحده منح الانسان جوابات معزية على مسائل الحياة ، ومهد أمامه العقبات الحائلة دون سعادة حياته .

فالمعرفة المبنية على العقل اظهرت لي أن الحياة لا معنى لها ، فاحتقرت حياتي ، ووددت أن أقتل نفسى بيدي. بيد انني كلما نظرت الى جماهير الناس حوالي كنت أرى انهم يعيشون فرحين بالحياة عارفين معانيها السامية . لان الايمان قد منحهم كما منحني قوة على ادراك معنى الحياة وحمل اثقالها بفرح وصبر .

وقد وجدت هذه الحقيقة نفسها في بلدان عديدة غير بلادي.

وبين أقوام كثيرين غير قومي من معاصري الاحياء والذين ماتوا قبلي . فقد كانت الحياة منذ وجدت على الارض رفيقة للايمان ، الذي لا لذة فيها بدونه .

ومهما تعددت أنواع الاجوبة التي يقدمها الايمان للانسان فان كل واحد منها يجعل لحياة الانسان المحدودة معنى غير محدود ، معنى لا يزول ولا يفنى مهما اجتمع لمحاربته من جيوش الآلام والوحدة والموت . فبالايمان اذن نستطيع أن نجد الحياة ، وبه نفهم معانيها السامية . فما هو هذا الايمان ؟ ليس الايمان كما فهمته باعلان غير المنظورات فقط ، ولا هو بالوحي الذي ينزل على قلوبنا فقط ، لان مثل هذا التحديد يظهر لنا شكلا واحداً من أشكال الايمان المتعددة ، كلا ولا هو علاقة الانسان بالله فقط ، (لان الايمان يجب أن يتحدد أولا ثم الله) ولا هو الاذعان لما أخبر به الانسان فقط ، كما يعتقد الكثير من الناس ، وانما الايمان الحقيقي الكامل هو معرفة معاني الحياة الانسانية معرفة حقاً تحمل الانسان على محبة الحياة والمحافظة عليها . الايمان هو وحده قوة الحياة .

فالرجل الحي يؤمن بشيء ، وبغير الايمان لا يستطيع بشر أن يعيش في العالم . لان الذي لا يؤمن بان في الوجود غاية يعيش لأجلها هو ميت بالحقيقة . فاذا لم ير ولم يفهم بطلان المحدود فهو يؤمن بغير المحدود . واذا رأى بطلان المحدود وزواله فهو مضطر الى الايمان بغير المحدود في كل حال . فالحياة بغير الايمان مستحيلة .

حينئذ رجعت الي أفكاري القديمة أتأمل فيها مرتعداً خائفاً .فقد اتضح لي الان أن على الراغب في الحياة أما أن يغمض عينيه عن غير المحدود ، او أن يقبل تفسيراً لمعنى الحياة يساوي بين المحدود وغير المحدود . وقد قبلت مثل هذا التفسير ، ولكنني لم اكن في حاجة اليه بعد ان أمنت بالمحدود ، ولذلك شرعت .أطبق تجارب العقل على تفسيري : وفي نور العقل رأيت أن جميع هذه التفاسير للحياة عقيمة وباطلة. ولكن الوقت الذي انقطعت فيه عن الايمان بالمحدود مضى ، وعبثا حاولت في غضون ذلك أن أجد ايضاحاً لمعنى الحياة ابنيه على أساس العقل والمعرفة . واما مصاحبتي لعظماء المفكرين ، ودرسي لاراء نخبة الحكماء فلم يدنيني الا من النتيجة القائلة ان ج تساوي ج . ومع أن هذه النتيجة لم تجد فائدة لحياتي فقد قبلتها معجبا بمقدرتي على الحصول على مثلها لايضاح القضية التي شغلت فكري وحرمتني لذتي في حياتي

ماذا فعلت عندما نشدت جوابا على قضيتي بدرس العلوم الطبيعية؟ رغبت في معرفة السبب الذي اعيش لاجله ، ولذلك درست كل شيء ما خلا نفسي . ولاشك انني تعلمت امورا كثيرة بهذا الدرس ، ولكنني لم اتعلم شيئا مما كنت في حاجة اليه .

وماذا فعلت عندما نشدت الجواب في درس الفلسفة ؟ درست افكار الذين كانوا في نفس الحالة التي كنت فيها ، يجهلون الجواب على السؤال « لماذا اعيش ؟ » وواضح انه لم يكن لي اتعلم بهذه

الطريقة الا ما عرفته من قبل ،وهو انه يستحيل عليّ ان اعرف شيئا : من انا ؟—جزء من غير المحدود . بهذه الكلمات سر القضية بكاملها .

وهل يمكن ان الانسانية لم يخطر لها مثل هذا السؤال من قبل؟ أم هل يعقل انه لم يتعرض احد قبلي لمثل هذا السؤال البسيط الذى يخطر على بال كل ولد ذكي ؟

كلا : فالانسان منذ وجد على الارض وهو يسأل مثل هذا السؤال ، وقد عرف الناس منذ اقدم الازمنة ان الجواب على هذا السؤال سواء بني على مقابلة المحدود بالمحدود او غير المحدود بغير المحدود ، قلما يأتي بنتيجة.وما برح الانسان منذ ابعد ازمنة التاريخ يدرس علاقة المحدود بغير المحدود ويوضحها ويفسرها .

وجميع الاراء المتعلقة بمساواة المحدود وغير المحدود ، التي بواسطتها بلغت الينا عقائدنا بالحياة ، والخالق ، والحرية،والصلاح ، تخضعها للتحليل المنطقي . وهذه الاراء لاتقبل تجارب العقل المادية في تفسير غاية الحياة .

قاذا لم يكن المنظر راعبا ، فانه ولاشك يدعو الى الضحك والسخرية ان نرى ذواتنا محولين بعجبنا وغرورنا بمعرفتنا كالاولاد الصغار، ندور ساعاتنا بايدينا ، ثم لا نلبث ان ننزع منها محركاتها لاعبين بها متعجبين كيف انها لاتضبط الوقت

ان التقرير في التناقض الكائن بين المحدود وغير المحدود،

والجواب على السؤال المتعلق بغاية الحياة وحقيقتها بطريقة تدنينا من الحياة وتقرب الحياة منا ، كل هذا ضروري بالغ الاهمية في حياتنا . والجواب الوحيد على هذا هو بالحقيقة موجود في كل مكان ، وفي كل زمان بين جميع الامم والشعوب ، وقد وصل الينا من اقدم الازمنة التي لم يعرف الناس فيها شيئا عن اصل الانسان وهو صعب بهذا المقدار حتى انه كان يتعذر علينا ان نصل اليه بانفسنا ، ولكننا بعد ان حصلنا عليه عدنا ، باهمالنا وعدم اكتراثنا فاعرضنا عنه بالشروع بمسائل لا فائدة منها تعرض لكل منا ولكن ليس بيننا من يعرف ان يجاوب عليها .

فالعقيدة القائلة بوجود اله غير محدود ونفس مقدسة خالدة ، وطريقة معروفة لعلاقة المخلوق بالخالق ، ووحدة الروح وحقيقتها ، ورأي الانسان في الخير والشر ، كل هذه ميراث خالد لم نحصل عليه الا بعد جهاد الانسانية في سبيله اجيالا عديدة . ومع انه بغير هذا الميراث لا يمكن ان توجد حياة ، وبدونه لا استطيع انا ان أوجد فانني ، أنكره واتمرد على عمل الانسانية باسرها ، مغامرا في حل قضيتي بواسطة فكري وحده .

مثل هذه الافكار لم تخطر لي في تلك الايام كما اوضحتها الآن ، ولكن جذورها كانت في فكري . فادركت .

«١» ان المركز الذى اتخذناه انا وشوبنهور وسليمان ، بالرغم من كل حكمتنا ، كان جنونيا محضا . لاننا مع معرفتنا ان الحياة شر

لا نزال نتمسك بها . ويتضح جنون هذا الرأى مما يأتي : اذا كانت الحياة في عقيدتنا شرا وجنوناً ، فلماذا لا نقتل ذواتنا ونستريح من المرارة التى يحملها شر الحياة لافكارنا ؟

«٢» وفهمت أيضا اننا بجميع مباحثنا كنا ندور في دائرة واحدة. ندرس ، ونبحث ، ونفتش ، وندقق، وأخيرا تأتى النتيجة ج تساوي ج . فسر الماء بعد الجهد بالماء

«٣» بدأت أدرك أن الاجوبة التي يقدمها الايمان تحتوى على انقى ينابيع الحكمة البشرية ، وانه لا يجوز لي ان أرفضها لمجرد تمرد العقل عليها ، فهي وحدها الكفيلة بحل قضية الحياة .

الفصل العاشر

قد فهمت كل هذا ،ولكنه لم يساعدني على التخلص من شقائي

فقد أصبحت مستعدا ان اقبل اي ايمان كان على شرط ان لا يطلب مني نكرانا ظاهراً لعقلي ، لان مثل هذا العمل يعرضني للكذب . فدرست البوذية والاسلامية بكتبهما الاصلية ، ودرست المسيحية بعناية خاصة ، بكل ما كتب فيها وبحياة اساتذتها الذين كانوا حولي .

فوقف فكري وانتباهي اولا على درس المؤمنين من أبناء بلادي المقربين مني ، علماء الارثوذكسية وعظماء المفكرين من رجال الدين والرهبان الشيوخ المؤمنين بان الخلاص يتوقف على الايمان

بالفاذي . فكنت أسعى الى هؤلاء المؤمنين وأسألهم عن ايمانهم وعن عقائدهم في الحياة والغاية منها .

ومع انني كنت ابذل كل جهدي لتجنب المناظرات والمجادلات معهم فانني لم استطع أن اعتنق ايمانهم . فقد رأيت أن الذين كانوا يطلقون عليه اسم الايمان ، لم يوضح لي معنى الحياة ، بل عمل بالاحرى على زيادة في ظلمتها ، ورأيت ايضاً أنهم لم يبنوا ايمانهم على اساس المجاوبة على مسائل الحياة التي جذبتني محبة الاطلاع عليها الى الايمان بل كانت تحملهم الى ايمانهم غايات اخرى لا شأن لي فيها

وانني لا ازال اذكر الرعب الذي استولى عليّ والآلام المريرة التي قاسيتها بعد ان فشلت في الاهتداء الى ضالتي بين زعماء الايمان الذين طالما علت النفس بالخلاص عن يدهم ، ولكنني لم استفد شيئاً بل رجعت الى هاوية يأسي الاول ، أوفر شقاء واكثر تعسا .

فكنت كلما بالغوا في بسط دقائق عقائدهم أمامي اشعر بكل الوضوح انهم على ضلال ، وان عقائدهم كلها لا تستطيع ان توضح لي معنى الحياة .

ولم تكن ثورتي على ما اضافوه من الزوائد التافهة الى العقيدة المسيحية البسيطة ، العزيزة على قلبي دائما ، بالشيء المذكور تجاه دهشتي مما رأيته وعرفته ان حياتهم الشخصية لا تختلف عن حياتي الا بأنهم يعيشون على خلاف ما يعلمون ويؤمنون . ولذلك ثبت لدي انهم كانوا يخادعون ذواتهم ، وانه ، لا لامثالهم ولا لمثلي ،

من غاية في الحياة سوى التمتع بطيباتها ، والاستسلام لرغباتها . رأيت هذا ، وأعتقدت به ثانية ، لانه لو كان الايمان الذي يقول به هؤلاء قادراً على ازالة الخوف من الشيخوخة ، والمرض ، والموت ، لما كانوا ، وهم المؤمنون الحقيقيون في زعم اتباعهم يرتعدون خوفا من الموت والمرض والشيخوخة ولكن المؤمنين الذين عرفتهم في محيطي كانوا مثلي ، يتنعمون بمعيشتهم ، ويحافظون على ثروتهم ، ويبالغون في العمل على زيادتها ، وتهلع قلوبهم من مجرد الافتكار في الشيخوخة ، او المرض ، او الموت . وفوق كل هذا كانوا مثلي ، ومثل جميع البعيدين عن الايمان ، يستسلمون لشهوات الجسد ، ويعيشون معيشة ، ان لم تكن بادابها اسقط من معيشة الكفار ، فهي مثلها على الاقل .

لم تستطع المناظرات ان تقنعني باخلاص هؤلاء المؤمنين في ايمانهم . فالاعمال وحدها التي بها يبرهن صاحبها على ايمانه بالحياة ايمانا يجعله يقضي قضاء مبرما على الخوف من الفقر ، والمرض ، والموت ، هي التي كانت تستطيع ان تقنعني ، ولكني لم اجد مثل هذه الاعمال بين جميع انواع المؤمنين الذين عرفتهم اذ ذاك . والقليل منها الذي وجدته كان بين الكفرة اكثر منه بين المؤمنين

حينئذ أدركت ان ايمان هؤلاء ليس بالايمان الذي نشدته ، بل هو شكل من الاشكال التي يلجأ اليها ذوو الشهوات في الحياة لتبرير ذواتهم تجاه الحياة . وفهمت جيداً ان هذا الايمان ، اذا لم يستطع

ان يعزي صاحبه التعزية الكاملة فهو على الاقل قادر ان يهدىء من ثورة فكر كفكر سليمان وهو على فراش الموت . ولكن هذا لا يقدر ان يؤدي الخدمة اللازمة لاكثرية ابناء الانسان ، الذين لم يولدوا للتمتع باتعاب العمال واعراقهم ، بل انما ولدوا ليوجدوا حياة لانفسهم بجدهم وتعبهم . فالانسانية ، لكي تعيش ، وتواصل حياتها شاعره بمعنى هذه الحياة ، تحتاج الى نوع اخر من الايمان أنقى وأصدق من الايمان الذي عرفته . حينئذ لم يقنعني بوجود الايمان مجرد ان سليمان وشوبنهور ، وكل من وافقهما في آرائهما مثلي ، لم يقتلوا ذواتهم ، بل انما اقنعتني الحقيقة الواضحة ان مئات الملايين من ابناء الانسان قد درسوا سليمان وشوبنهور ومع ذلك عاشوا حياة سعيدة لا تعيبها شائبة ولا يزعجها شك او تمرد

وهكذا شعرت بقوة تدنيني من المؤمنين من طبقات الفقراء ، والبسطاء ، والجهلاء ، والنساك ، والرهبان ، والفلاحين السادجين . والعجيب ، ان ابناء الشعب هؤلاء كانوا يعتقدون بنفس العقيدة المسيحية التي كان ابناء طبقتي الشريفة يدعون الانتماء اليها . ومع ان عقيدة هؤلاء الفقراء كان يمازجها الكثير من الخرافة والوهم ، كما هو الحال مع عقيدة الاغنياء من رجال الدين والدنيا ، فان الفرق كان ظاهراً بين الفريقين ظهور الشمس . لان مزج الخرافة بالعقيدة المسيحية لم يكن له أقل تأثير في حياة الاغنياء ، بل كانت الغاية منه جعله خدعة ونخا للبسطاء ، اما مزج الخرافة بالعقيدة المسيحية في

حياة العمال والفقراء فقد كان جزءا ملازماً لهذه العقيدة ولم يكن من الممكن غرسها في اذهانهم وجعلها جزءاً من حياتهم بدونه . ولذلك كانت حياة المؤمنين ، من ابناء طبقتنا الاغنياء والاشراف مناقضة كل المناقضة لايمانهم ، في حين ان حياةالمؤمنين ، من الفقراء والعمال، كانت تحقيقاً ثابتاً لايمانهم الصحيح الذي به وحده استطاعوا ان يدركوا معنى الحياة .

لاجل هذا شرعت للحال في درس حياة العامة وعقائدهم ، وكنت كلما تعمقت في درسي ازداد اقتناعاً بان الايمان الحقيقي كائن في قلوبهم ، وانهم يعتقدون في أعماق نفوسهم ، ان هذا الايمان جزء مكمل لحياتهم ، وبدونه لا يجدون من معنى لوجودهم على الارض . فكان ما رأيته في عامة الشعب مناقضاً على خط مستقيم لما رأيته بين الخاصة من ابناء الاشراف والاغنياء ، الذين كانت حياتهم بدون الايمان سهلة جداً عليهم ، ولم يكن بين كل الف منهم مؤمن واحد : في حين ان الفقراء والعامة لم يكن بين الالاف منهم رجل واحد غير مؤمن . وعلى العكس مما رأيت في طبقتنا ، حيث تقضي الحياة بالكسل والملذات ، والتمرد على الحياة ، كنت أرى الاكثرية الساحقة من العمال تعيش مجتهدة ، عاملة بغير انقطاع ، فرحة بالحياة ، راضية بقسمتها فيها . وعلى العكس مما رأيت في طبقتنا ، رجالا ونساء متمردين ، ثائرين مرتجفين امام اوجاعهم وامراضهم الكثيرة ، رأيت بين العامة هدوءا تجاه مصائب الحياة

واوجاعها وهمومها ، التي ينظر اليها الفقراء نظرتهم الى حوادث لا بد منها ، وهي في الغالب تعمل للخير . وعلى العكس من العقيدة الغالبة بيننا ، القائلة ان الانسان كلما قل عمله قلت معرفته لمعنى الحياة وتزايدت عماوته عن رؤية الحقيقة التي توضح له ان المرض ، والموت ، والشيخوخة ، مساخر شريرة ، على العكس من كل هذا ، كنت ارى اولئك العمال الفقراء يعيشون ، ويمرضون ، ويموتون ، من غير ان تفارقهم الثقة بحكمة الحياة ، والابتسامة لا تنتزع منهم . ومع ان ابناء طبقتي اجمعت كلمتهم على ان الموت الذي يرافقه الصبر والهدوء والفرح ، والرجاء ، ويبعد عنه التذمر ، والياس ، نادر في العالم ، فقد رأيت ان الموت الذي يرافقه التذمر والياس لا اثر لوجوده بين الطبقات الحقيرة .

ومع ان هؤلاء الفقراء حرموا جميع الملذات التي تجعل الحياة ذات قيمة في نظر سليمان ونظرنا ، فهم يعيشون في وسط سعادة لم يحلم بها سليمان في مجده ، ولم يعرف مثلها اعظم عظماء الارض . تأملت في كل من حولي من العامة ، ودرست حياة جميع الذين عاصروني وماتوا قبلي من ابناء الشعب فرأيت انه ليس فقط واحد او اثنان او ثلاثة منهم ، بل مئات والوف وملايين ، قد فهموا معنى الحياة بطريقة مكنتهم من المعيشة بغبطة والموت بطمأنينة . جميع هؤلاء الالوف والملايين من ابناء الانسان ، المتفرقين بعضهم عن بعض بالاخلاق ، والعادات ، والتربية ، والتعليم ، والمراكز الاجتماعية ،

كانوا على عكس ما كنت، واقفين على معاني الحياة والموت ،ولذلك اشتغلوا بهدوء ، واحتملوا الفقر والمرض بصبر ، وعاشوا ، وماتوا وكان كل ما رأوه في الحياة من عسل وحنظل حلوا صالحا في عقيدتهم

لاجل كل هذا احببتهم ، ودنوت منهم ، ورغبت في الحياة معهم . وفي كل ساعة كان لي درس سعيد من حياتهم ، حياة الاحياء منهم الذين عاشرتهم ، والاموات الذين قرأت تراجمهم وأخبرت عن تصرفاتهم : ولذلك كنت اشعر بنمو محبتي لهم ، وشديد رغبتي في اقتفاء خطواتهم والتخلق باخلاقهم . على هذه الصورة عشت عامين كاملين سعيدين . وفي نهايتهما حصل تغيير كبير في حياتي، طالما تحفز للظهور، وكنت اشعر به ولا ادري كيف ومتى اظهره. وخلاصته ان حياة طبقتنا الغنية والمتعلمة اصبحت مكرهة في عيني ، ولم يبق لها اقل معنى في عقيدتي . فجميع اعمالنا ، وافكارنا ، وعلومنا ، وفنوننا ، ظهرت لي باشكال جديدة وصور جديدة . فادركت انها كلها لعبة صبي صغير لا معنى لها . وثبت لدي ان حياة العمال ، وجميع ابناء الانسانية المشتغلين بالانتاج ، والعاملين على البناء والتعمير ، هي وحدها الحياة الحقيقية التي يجدر بي وبكل عاقل ان يسعى اليها . اجل ، فقد ادركت جيدا ان هذه هي الحياة الحقيقية ، وان المعنى الذي يجده ابناؤها فيها هو المعنى الحقيقي للحياة ولذلك قبلته بفرح عظيم

الفصل الحادي عشر

عندما تذكرت ثورتي على هذه العقائد بعينها ، وعدت بالفكر الى النظرة الحقيرة التي نظرتها اليها عندما رأيت ان الذين يدعون التمسك بها يعملون ماهو مخالف لها ، وفكرت كيف ان هذه العقائد نفسها قد جذبت قلبي اليها ، وظهرت لي كاملة صحيحة عندما درست حياة العائشين على وفقها ، حينئذ ادركت في اعماق قلبي لماذا رفضتها وحسبتها بدون معنى في مامضى من عمري ، ولماذا اعتنقتها فيما بعد وعرفت انها ممتلئة بالمعاني السامية . قد فهمت انني اخطأت وادركت ما هو خطأي . فلم يكن خطأي منحصرا في فساد تفكيري فقط ، بل انما كان بالاحرى في فساد حياتي . ولذلك ادركت ان الحقيقة ، لم تحجب وجهها عني لمجرد غلطي في التأمل والتفكير فقط ، ولكنها حجبت عني من اجل معيشتي الشاذة ، واستسلامي لشهواتي الجامحة ورغباتي الثائرة . وادركت ايضا أن سؤالي : ما «هي حياتي ؟» والجواب « هي شر » ، كانا منطبقين كل الانطباق على الواقع . ولكن الخطأ نتج عن رغبتي في تطبيق هذا الجواب ، الذي يتناول حياتي وحدها على الحياة عامة . فقد سألت « ما هي حياتي الخصوصية ؟ » فكان الجواب بحق : «هي شر وضلال . » وهو بالحقيقة جواب صحيح .لان حياتي في ذلك الحين الحياة الممتلئة بالاثم والمعصية ، كانت بالحقيقة شراً وضلالا .

فالجواب القائل : «ان الحياة شر لا معنى له» كان منطبقا على حياتي الشخصية اذ ذاك ، وليس على الحياة بوجه عام .

حينئذ ادركت الحقيقة التي وجدتها فيما بعد في الانجيل :
« ان الناس احبوا الظلمة دون النور ، لان اعمالهم كانت شريرة . لان كل من يصنع الشر يبغض النور ، ولا يأتي الى النور ، لئلا توبخ اعماله . »

فرأيت بوضوح ان على الراغب في ادراك معنى الحياة ان يعيش هو نفسه اولا حياة بعيدة عن الشر ممتلئة بالمعاني الصالحة ، وحينئذ تستنير بصيرته فيرى المعنى الحقيقي لحياته . وفهمت اخيراً لماذا كنت أدور حول هذه الحقيقة البسيطة زمنا طويلا من غير ان اراها ، وادركت ان الذي يتكلم عن الحياة ، يجب ان ينظر اليها نظرة عامة ، ولا يقصر نظره على حشرات دنيئة عليها .

هذه حقيقة كانت ، وما برحت ، حقيقة كما ان ٢ في ٢ يساوي ٤ ولكنني لم اقبلها لانه كان يجدر بي فوق اعترافي بان ٢ في ٢ يساوي اربعة ان اعترف انني رجل شرير . فقد كنت ارى ان اعتقادي بصلاحي اصدق في عقيدتي من التسليم بان ٢ في ٢ يساوي اربعة ولاجل هذا احببت الصالحين ، وابغضت نفسي ، وقبلت الحق وها قد أصبح كل شيء واضحا في عيني .

فاذا سأل اليوم الذي ينفذ أحكام القتل ، ويقضي حياته بتعذيب الناس وقطع رؤسهم ، أو اذا سأل سكير فاسق ، أو مجنون معتوه

قضى عمره في غرفة مظلمة ، وهو على كرهه لسجنه القاتم يعتقد أنه يموت اذا خرج منه ، اذا سأل اليوم كل واحد من هؤلاء نفسه السؤال : « ما هي الحياة؟ » فانه لا يجد سوى جواب واحد خلاصته ان الحياة شر وحماقة ، ومثل هذا الجواب يكون حقيقياً ، ولكن في ما يخص حياة الذي يسأله دون غيره من الناس . فهل كنت أنا والحالة هذه مجنوناً بهذا المقدار ؟ هل كنا باجمعنا نحن الاغنياء والاذكياء والكسالى في هذه الدرجة من الجنون المطبق . . ؟

قد ادركت أخيراً اننا كنا اكثر من هذا جميعنا، أو انني على الاقل ، انا وحدي ، كنت مجنوناً . فالطير في عقيدتي قد خلق بطريقة ملائمة للطيران والتقاط طعامه وبناء عشه ، وكلما رأيته يقوم بعمله افرح لفرحه . والماعز والارنب والذئب كلها خلقت بطريقة عجيبة تمكنها من نيل طعامها ، والمحافظة على جنسها ، وتربية صغارها ، وهي اذ تقوم باعمالها سعيدة في عقيدتي ، وحياتها منطبقة كل الانطباق على العقل

فماذا يجب على الانسان ان يعمله اذن ؟ فهو كالحيوان يجب أن يحصل على معاشه ، ولكن بطريقة تختلف عن الطريقة التي يربح بها الحيوان معاشه . فالحيوان يسعى منفردا ويعيش، ولكن الانسان الذي يحصر كل جهوده بنفسه لا نجاح له . ولذلك وجب عليه أن يشتغل للانسانية قاطبة ، والانسانية لا تحرمه من ثمرة عمله . فاذا

قام بمثل هذا العمل فانا واثق بسعادته ، وبان حياته تكون منطبقة على العقل .

فماذا فعلت انا في الثلاثين سنة الماضية من حياتي الناضجة ؟ انني لم اقتصر على عدم مساعدة حياة غيري ، ولكنني لم اصنع شيئاً حسناً لنفسي فقد عشت معيشة حشرة قذرة ، وعند ما سألت نفسي لماذا عشت في الوجود ، حصلت في الحال على الجواب المصيب : « ليس من سبب واحد لمعيشتك » فاذا كان معنى حياة الانسان منحصرا في قيامه باعمال حياته لنفسه ، فكيف كان من الممكن اني أنا الذي قضيت ثلاثين عاما من عمري ، ابذل جهودي للقضاء على حياتي ، وحياة الآخرين ، يجب ان اسمع جوابا غير هذا الجواب ان حياتي شر وضلال عظيم ؟

نعم كانت حياتي شراً وضلالا

ان في الوجود ارادة كلية تدبر كل ما فيه من الكائنات . وهذه الارادة الكلية لا عمل لها سوى العناية بحياتنا وبحياة الوجود الذي نعيش فيه . ولكي نرجو ادراك غاية هذه الارادة يجب علينا قبل كل شيء ، ان نعمل الواجبات المفروضة علينا . فاذا لم أقم أنا بقسطي من الواجب في الوجود ، فانني لن اعرف شيئاً عن هذه الارادة ، ولا عن الوجود الذي انا جزء منه .

اذا حمل متسول فقير ، عاري الجسد ، من مفارق الطرق الى مسكن فسيح الارجاء ، وهنالك أمر به ان يلبس ، ويطعم ، ويعمل

في تحريك يد مضخة ماء ، فالامر واضح أن المتسول ، قبل أن يفتش عن السبب الذي حمل صاحب المنزل ان ينقله الى بيته ويأمره بتحريك يد مضخة الماء ، وقبل أن يفكر في ما اذا كانت النظم والترتيبات التي في المنزل معقولة أم لا ، يجب عليه ان يحرك يد المضخة . وهو اذ يحرك هذه اليد يجد ان حركته ، بواسطة المضخة الداخلية ، تخرج الماء من قلب الارض وتروي سطحها فيأتي بالثمار الشهية . وبعد ان يظهر براعة في حركة يد المضخة ، ينقلونه الى عمل آخر مثل جمع الأثمار ، والعناية بالاشجار ، وهكذا يجد يتنقله في أعمال الدار التي هو فيها ، النظام الموضوع لتلك الدار ، وينال قسطه منها بملء السهوله ، بواسطة العمل ، الذي لو لم يعتصم به ، بل اقتصر على الكلام والسؤال ، لما كان له شيء

وهكذا الحال مع الذين يصنعون مشيئة سيدهم . فهم يقومون باعمالهم فرحين شاكرين لا يعرف التذمر سبيله الى قلوبهم . أما نحن الذين يدعون العلم ، والحكمة ، والفهم ، فاننا نأكل خيرات رب البيت ولا نريد أن نقوم بالعمل الذي يفرضه علينا . ولا نكتفي بهذا فقط ، بل نجلس على كراسي العاملين الصادقين ونشرع في البحث والجدال : لماذا يجب ان نحرك يد المضخة ؟ مدعين ان مثل هذا العمل بليد لا يليق بنا . وبعد أن نفكر في كل هذا ، ونفرغ من مباحثنا ، ماذا تكون النتيجة ؟ نقول ان رب البيت نفسه بليد أيضاً ، أو انه غير موجود ، واننا نحن وحدنا حكماء ولكننا نشعر

اننا لا نصلح لشيء ، وان حياتنا كلها لا معنى لها ، ولذلك يجب ان نضع لها حدا بالانتحار !

الفصل الثاني عشر

ان اقتناعي بخطأ المعرفة المبنية على العقل وحده ، قد ساعدني على تحرير نفسى من التفكير العقيم . والحقيقة الجديدةالتي اظهرت لي ان معرفة الحق لا يمكن أن يحصل عليها الا الذي يتمتع بالحياة الحق ، قد قادتني أخيراً الى الشك في عدالة حياتي ، ولذلكرأيت من الواجب علي أن أخرج من دائرتي الضيقه ، واتأمل في ماحوالي ملاحظاً حياة العمال الحقيقيين ، ومتعلما ان هذه الحياة البسيطة هي الحياة الحقيقية بعينها . فادركت اذ ذاك انني اذا شئت ان افهم الحياة ، واقف على معناها ، يجب علي ان لا اعيش حياة حشرة عالقةعلى جسم غيرها ، بل حياة مثمرة بالعمل الصالح لها وللعالم اجمع ، مقتبلا المعنى الذي يمنحه للحياة جماهير العاملين الامناء ، الذين يؤلفون صرح الانسانية الكاملة —

وانني أستطيع ان الخص مركزى آنئذ بما يأتي : —

في أثناء تلك السنة ، التي فكرت فيها بما سبقت فوصفته في الفصول السابقة ، كنت اسأل نفسى في كل دقيقة،اذا كان الافضل لي أن اقتل ذاتي أم لا . وافكر بغير انقطاع فى الحياة وما إشكل علي من اسراوها . ولكن قلبي كان يتألم . وفي أعماقه شعور مذيب

لا أستطيع ان اصفه الا بانه عاطفة خفية كانت تدفع بي الى التفتيش عن الله .

وهذا التفتيش عن الله ليس من نتاج فكري ، بل انما كان شعوراً في قلبي . وانا أقول هذا بملء الثقة ، لان فكري لم يكن راضياً عن مثل هذا الشعور النامي في قلبي . وقد كان هذا الشعور اشبه بما يختلج في قلب اليتيم ، أو الضائع في مجاهل لا يعرف عنها شيئاً ، وهو يرجو مساعدة ، ولكنه لا يعرف ممن سيحصل عليها .

ومع انني كنت واثقاً بان البرهان على وجود الله مستحيل عليّ لان كَنْت الفيلسوف أظهر لي هذا ، وانا قبلته وتمسكت به . فقد ظللت أسعى وأفتش عن إلاه ، واؤمل بالبلوغ الى ضالتي ، وكنت في كل أيام شكوكي ، عملا بعادة قديمة أخاطب هذا الاله بصلاتي من غير ان أجده .

ففي بعض المرات كنت أراجع مباحث كَنْت وشوبنهور في ان البرهان على وجود الله مستحيل ، وأقبلها باقتناع ، ثم لا ألبث ان أثور عليها في أوقات أخرى ، وأفندها وأظهر خطأها وضلالها .

فكنت أقول في نفسي ، ان التعليل لا يمكن ان يقيد بقيود الفكر كالزمان والمكان . فاذا كنت انا موجود فلا بد من علة لوجودي وهذه علة جميع العلل . وعلة جميع العلل هذه هي ما نسميه الله وقد لزمني هذا الفكر أو الشعور حتى كنت أبذل كل ما في قوتي للبلوغ الى الشعور بوجود هذه العلة

وعندما شعرت بوجود مثل هذه القوة ، التي هي اسمى مني ، أدركت للحال ان حياتي مستحيلة كما خيل الي من قبل . حينئذ سألت نفسي قائلا : —

« ما هي هذه العلة أو القوة ؟ كيف يجب ان أفكر فيها ؟ وما هي العلاقة التي بيني وبين ما اسميه الله ؟ »

ولكنني لم أجد لهذه الاسئلة غير الجواب القديم المعروف : « هو الخالق بارىء كل الكائنات . »

ولكن هذا الجواب لم يقنعني. فشعرت ان قوة الحياة الضرورية ما برحت تعوزني ، فعاودتني مخاوفي وشكوكي ، وشرعت في الحال أصلي الى الاله ، الذي كنت أفتش عنه ، ليساعدني وينقذني من يأسي . بيد ان أفراطي في الصلاة لم يزدني الا ثقة بان صلواتي لم يسمعها أحد ، وبأنه لا يوجد أحد يستطيع الانسان ان يلجأ اليه في عهد محنته . لاجل ذلك صرخت واليأس يملأ قلبي ، لعدم مقدرتي على الاهتداء الى الاله الذي فتشت عنه ، قائلاً :

« يارب أرحمني وخلصني . أيها الرب الهي علمني . »

ولكن لم يرحمني أحد ، ولذلك شعرت ان حياتي قد دنت نهايتها

بيد أنني لم البث أن رجعت مثنى وثلاث ورباع الى موضعي القديم ، ولكن من جهات متعددة ، مفكراً في ذاتي وقائلا : انه يستحيل ان أوجد على هذه الارض بدون غاية معينة لوجودي ، أو معنى مخصوص لحياتي ، ولا يمكن البته ان أكون (كما كان يخطر

لي بعض المرات) فرخا صغيراً ، سقط من عشه صدفة على الارض . وما الذي يحملني الى الصراخ ، كما يفعل فرخ الطير بعد ان يقع على ظهره على عشب الحقل ؟ اليس هذا دليلا على ان هنالك أماً ولدتني ، واعتنت بتربيتي واطعمتني ، وأحبتني ؟ ولكن اين هي؟ اين تلك الام ؟ واذا كنت قد رميت من عشي ، فمن رماني ؟انني لا أستطيع ان أتعامى عن رؤية هذه الحقيقة : وهي ان كائنا أحبني وكان السبب في وجودي. فمن هو هذا الكائن ؟ هو - ولا شك - الله. وهو يعرف تفتيشي، ويرى سعيي ، ويأسي ، وجهادي . فقلت لنفسي : « هو موجود بالحقيقة . » وكنت في كل لحظة ، اعترف فيها بوجوده ، أشعر بان حياتي تجددت ، وايماني بما في الوجود من اللذة والبهجة قد نهض من رمسه . »

وقد فارقتني هذه القناعة بوجود الله ، الى درس علاقتنا معه ، فعرض أمامي الاله المثلث الاقانيم ، خالقنا ، الذي أرسل أبنه فاديا لخطايانا. حينئذ رأيت هذا الاله ، المنفصل عني وعن العالم ، يذوب كالجليد من أمام عيني ، فلم يبق لوجوده أثر في ذهني ، ولذلك نضب ينبوع الحياة الذي رأيته هنيهة وكنت أعلل النفس بأن أروي ظمأ يأسي من مائه النمير . فسقطت ثانية في هوة اليأس ، وشعرت بانه لم يبق لي سوى العزم على قتل نفسي . ولكن هنالك شعوراً آخر اردأ من هذا لزمني : وهو انني يجب ألا أفكر بالاقدام على مثل هذا العمل الفظيع ابداً .

لا اقول مثنى ، و ثلاث بل عشرات ومئات المرات ، كانت تنازعني هذه الافكار المتناقضة ، فتارة اؤمن وأشعر بحلاوة الحياة، وطوراً يفارقني ايماني ويحل مكانه الشكوك والشعور بشر الحياة وبطلانها .

اذكر انني كنت مرة في احد أيام الربيع الجميلة ، منفرداً في غابة أصغي الى حفيف الاشجار ، وافكر في أمر واحد طالما كان شغلي الشاغل مدة عامين كاملين ، — وهو وجود الله .

فقلت في نفسي : — « حسن وجميل ليس اله . وليس من شيء في الوجود سوى شعوري. ولا يوجد في العالم شيء ذو وجود حقيقي الا حياتي ، لا يوجد شيء من ذلك البته . وما من قوة أو أعجوبة تستطيع ان تبرهن وجود شي من هذا ، لان العجائب لا وجود لها الا في خيال السقيمي العقول . »

ثم سألت نفسي ثانية : « ولكن من اين لي هذا الشعور الذي يعمل في قلبي ويحملني الى التفتيش عن الله ؟ »

قد جدد هذا الفكر الاخير ما مات من ايماني ، وبدد غيوم اليأس من سماء حياتي ، فشعرت ثانية ببهجة الحياة . ولكن هذه البهجة لم تلبث ان زالت في وقت قصير . لان فكري عاد الى عمله يسائلني قائلا : —

« ان هذا الشعور ، الذي يحملك الى التفتيش عن الله ليس باله . لان مثل هذا الشعور يختلج في اعماقي ، وهو تحت سلطاني

فانا اظهره ، وانا احجبه كما اشاء وأهوى . فهو ليس بالضالة التي أنشدها ، الضالة التي لا أقدر أن أوجد بدونها . »

وهكذا ذوت الامال الجديدة في صدري ، وحلت في مكانها الشكوك والمخاوف ، فعاودني فكر الانتحار بقوة أشد من قبل .

فرجعت الى ما مضى من افكاري ، افحصها واقلبها ، وادرس التقلبات التي طرأت على حياتي بين اليأس والرجاء فادركت بعد الفحص ، انني لم اعش في ما مضى من عمري الا عندما كنت اؤمن بالله . وكما كانت حالتي في الماضي هي الان : كلما آمنت بالله أشعر بالحياة ، وكلما اعرضت عن هذا الايمان أشعر انني ميت بالحقيقة .

فما هو هذا اليأس وهذا الرجاء بانني لا أعيش عندما أخسر ايماني بوجود الله ؟ ولو لم يكن في اعماقي بقية رجاء بالاهتداء اليه ، لكان يجب ان أقتل نفسي من عهد بعيد فحياتي الحقيقية والحالة هذه ، مرتبطة بشعوري بوجوده ، وسعيي وراء الاهتداء اليه . فما يجب ان افعله اذن ؟ ولكن صوتاً قوياً كان يصرخ في اعماقي قائلا : « ان ما تنشده هو الكائن الذي لا قوام للحياة بدونه . فالحياة ومعرفة الله واحد عند التحقيق . والله هو الحياة . »

عش لتسعي الى الله ، لأن الحياة لا تكون بدون الله . بمثل هذا آمنت اخيراً من اعماق قلبي ، فشعرت بقوة الحياة الحقيقية ، ولم يفارقني هذا النور الذي اشرق على حياتي حتى اليوم .

هكذا تخلصت من الانتحار . ولكنني لم أعرف متى ، ولا

كيف تم هذا التغيير العظيم في حياتي . فكما انني شعرت بيأسي شيئاً فشيئاً ، وتدرجت من الشك البسيط ، الى الكفر بالحياة والاعتقاد بوجوب الانتحار ، هكذا عاد نور الحياة اليّ شيئاً فشيئاً بقوة ليست من عندي ، فانعش قلبي وأحيى ميت آمالي

والعجب ان قوة الحياة هذه ، التي رجعت اليّ ، لم تكن غريبة عني . لاني عرفتها في فجر شبابي ، وكان لها النفوذ الاول في حياتي

فرجعت بالفكر الى الماضي البعيد ، الى أيام صبوتي وشبابي . رجعت الى الايمان بتلك الارادة التي اوجدتني في هذا الوجود وطلبت مني ان اقوم بعمل ما . رجعت الى الاعتقاد بان واجب الحياة ، وغايتها الاولى ، انما تقوم بسعي الانسان ليصير أفضل مما هو ويعمل ما هو عدل في شريعة هذه الارادة الكلية التي اوجدته. رجعت الى العقيدة القائلة بان هذه الارادة لا تظهر الا في الصلاح الذي اجمعت الانسانية على محبته والاهتداء به . او بعبارة اخرى، رجعت الى الايمان بالله ، وبالكمال الادبي ، وبالتقليد الذي يمنح الحياة معناها الحقيقي . وانما الفرق بين حالتي الآن ، وحالتي اذ ذاك ، انني في عهد صبوتي ، قبلت كل هذا بدون فهم ، ولكني اقبله الآن عن ادراك صحيح ، وعقيدة ثابتة باني لا استطيع ان اعيش بدونه .

وانني لا اجد للتعبير عن حالتي افضل مما يأتي : قد شعرت ، بانني وجدت نفسي فجأة في مركب ، دفع الى عرض البحر ، من شاطيء

مجهول لديّ ، بعد ان أعطيت التعليمات اللازمة للبلوغ للشاطيء
الاخر ، ووضع بين يدي العدد الكافي من المجاذيف التي مع انني
لم أتعلم كيفية استعمالها كنت اجذف بها بكل قدرتي ولكنني كنت
كلما امعنت في السير الى قلب البحر ، ازداد طغيان الامواج عليّ
وقذفها بي خارج الخط المرسوم لسيري ، وقل اجتماعي بامثالي من
البحار ، الذين أبعدتهم الامواج عن الخطوط المرسومة لسيرهم مثلي.
هنالك كنت اجد ، في جهات مختلفة بحارة ، يعملون بجد واجتهاد
في محاربة البحر ، والتغلب على امواجه بهمة لا تعرف الملل ،
لمتابعة سيرهم ، والبلوغ الى محجتهم ، كما كنت اجد أيضاً اخرين
غيرهم ممن استولى عليهم اليأس فخارت قواهم ، ورموا مجاذيفهم ،
واستسلموا للامواج تسير بهم حيث شاءت. وكلما ابعدت في سيري،
كنت اشتغل بمراقبة ما يجري حوالي فانسى المحافظة على الخطة
المرسومة لي . واخيراً مللت التجذيف ، وضللت عن الخط المختص
بي ، فرميت مجاذيفي . وكنت في اثناء ذلك اصغى الى احاديث
السائرين حولي ، ممن اقلعوا عن التجذيف يؤكدون لي انني
واياهم نسير في السراط المستقيم. وهكذا سرت ، محمولا مع الامواج،
الى ان بلغت مكانا احاط بي اليأس فيه من كل جهة ، وتعالت
المياه حوالي حتى خيل اليّ أني سائر الى حتفي لا محالة . حينئذ
ذكرت المجاذيف ، وذكرت الخط المرسوم لسيري ، والشاطيء
الذي امرت ان اذهب اليه فعمدت الى مجاذيفي احركها بهمة

ونشاط ، سائراً في الخط المرسوم لي نحو الشاطيء .

فالشاطيء الذي سرت اليه هو الله والخط الذي تبعته هو التقليد ، والمجاذيف هي حرية الارادة التي اعطيتها لتسير بي الى الميناء الهادي ، حيث اجد وحدتي مع الله .

الفصل الثالث عشر

وهكذا تجددت القوة في اعماقي ، فبدأت اعيش من جديد . فانكرت على ابناء طبقتي حياتهم ، لانني ادركت انها ليست بالحياة الحق ، ولكنها خيال للحياة ، لان ما فيها من الانغماس في حمأة التنعم يحول دون ادراك معنى الحياة . وشعرت في اعماق قلبي ، انني لكي افهم معنى الحياة الحقيقي ، لا يكفيني درس حياة الطبقات الممتازة التي هي اشبه بالحشرات العائشة على اجسام غيرها ، بل يجب ان ادرس حياة طبقات العمال البسيطة ، الحياة التي تصنع حياة للعالم وتهبها معنى سامياً مقبولا من عامة الشعب . والعمال البسطاء الذين كانوا حولي هم الشعب الروسي ، الذي رجعت إليه انشد معنى الحياة بين صفوفه .

واذا كان في منالي ان اعبر عن هذا المعنى فهو كما يأتي :

ولد الانسان في هذا العالم بارادة الله الذي خلق كل انسان بصورة حرة تمكنه ان يخلص نفسه أو يهلكها كما يشاء ويريد . والغاية الاولى من وجود حياة الانسان منحصرة في خلاص نفسه .

وهو لا يستطيع ان يخلص نفسه الا بالعمل بكلمة الله . والعمل بكلمة الله يقضي عليه أن يعرض عن جميع ملذات الحياة ، ويعمل بنشاط ، ويتضع ، ويحتمل ، ويكون وديعاً بروحه وفكره . هذا هو معنى نظام الايمان بكامله في عقيدة الشعب ، وقد قبله الشعب عن يد رعاة الكنيسة ، الذين احتفظوا به على ممر الاجيال بواسطة التقاليد المحترمة من جميعهم .

وقد كان هذا المعنى واضحاً لي ، عزيزاً على قلبي . وهذا الايمان العام ، الثابت في قلوب الجماعات التي التجأت اليها اخيراً ، كانت تقيده لسوء الحظ ، قيود بعيدة عن الادراك والتفسير بهذا المقدار حتى انها ارجعت الثورة والتمرد الى قلبي : وهي الاسرار والفروض الكنائسية ، والصيام ، والسجود امام الرفات المقدسة والصور المختلفة . فالشعب السادج لم يكن قادراً ان يفصل بين هذه الفروض وبين الايمان ، وأنا صرت مثله عاجزاً عن الاقدام على مثل هذا الفعل . ومع ان ايمان الشعب البسيط ، كان يمازجه اشياء كثيرة غريبة على ادراكي وفهمي ، فاني كنت اقبل كل شيء ، فاذهب الى جميع الاحتفالات الكنائسية ، واصلي في الصباح وفي المساء واصوم ، واعد نفسي ، بالتقشف والامساك ، لمناولة الاسرار الالهية ، والعجيب انني لم اجد من عقلي معارضاً تجاه قيامي بجميع هذه الفروض ، فما كان يبدو لي في ما مضى مستحيلاً صار امراً بسيطاً ممكناً .

ان المركز الذي اتخذته لنفسي في الماضي تجاه قضايا الايمان قد تغير بكامله . فقد اعتقدت قبلا ان الحياة ممتلئة بالمعاني السامية ، أما الايمان فكان يظهر لي انه ادعاء فارغ للتوفيق بين قضايا متعددة لا شأن للحياة بها . وقد جربت مرة ان اجد لهذه القضايا معنى فلم افلح ، ولذلك تركتها واعرضت عنها . أما الآن فانا واثق بان حياتي لا معنى لها البتة ، ولا يمكن ان يكون لها معنى بذاته ، ولكن قضايا الايمان التي لم يكن لها اهمية في نظري قبلا قد اظهر لي الاختبار انها ، دون غيرها ، القوات الحقيقية في الوجود التي تمنح الحياة معناها الاسمى . كنت اعتقد قبلا ان هذه القضايا جميعها تافهة ، بليدة ، لم تخلق الا للبسطاء والجهلاء ، اما اليوم ، فمع انني لا ادرك معناها ، فانا اعتقد انها ذات معنى عظيم يجب ان اسعى الى درسه وفهمه

لاجل ذلك كنت افكر قائلا :—

« ان الايمان ينبع ، كالانسان وفكره ، من العلة السرية الاولى . وهذه العلة الاولى هي الله ، علة وجود جسد الانسان وعقله . وكما ان جسدي انبثق ، بالتسلسل المتواصل من الله الحيّ ، كذلك عقلي واعتقادي بالحياة خرجا منه تعالى ، ولاجل هذا فان درجات هذا النمو التدريجي ، الذي انا ثمرته الاخيرة ، لا يمكن ان تكون كاذبة . كل ما يؤمن به الانسان باخلاص يجب ان يكون حقيقياً ومع اننا نستطيع ان نعبر عنه بطرائق مختلفة ، فهو واحد في

جميع الحالات ، ولا يمكن ان يكون كاذباً . فاذا خيل اليّ في بعض الاحيان انه غير ذلك ، فلا يكون هذا بالدليل على كذبه ، بل هو اصدق برهان على ضعف ادراكي لحقيقته

حينئذ قلت لنفسي :

« ينحصر الواجب الاول ، لكل ايمان صحيح ، في أن يهب الحياة معنى لا يستطيع الموت أن يذهب به. وانه لطبيعي ان الايمان لكي يجاوب على سؤال الملك المحتضر في قصره بين الثروة والعظمة أو العامل المستعبد الفقير ، أو الطفل الذي لا يعرف كيف يفكر أو الحكيم الطاعن في السن ، أو الشيخ الذكي ، أو المرأة السعيدة الممتلئة باهواء الشباب ،أو جميع ابناء الانسان على اختلاف مراكزهم وادراكهم ، ـ انه لامر طبيعي وبسيط ، اذا كان هنالك جواب واحد في قاموس الايمان على السؤال الابدي الواحد المتكرر في كل يوم بافواه جميع الناس: « لماذا اعيش ؟وماهو مصير حياتي؟» فالجواب ، وان كان واحداً بجوهره وحقيقته، فانه يتنوع بمظاهره تنوعا لاحد له وهذا التنوع ، وان ظهر غريباً ، فهو ضروري ، بالنسبة الى حالة كل رجل وكل امرأة أمام الشمس من الذين يهمهم معرفة مصيرهم ومعنى حياتهم . »

ولكن هذه التأملات والافكار ، التي تبرر غرابة مافي الايمان من المظاهر الطفلية ، لم تكن كافية لاقناعي على ان لي الحق في قضية كقضايا الايمان التي اصبحت شغلي الشاغل في الحياة ، ان اتخذ

لنفسي صفة عاملة في موضوع لا تزال شكوكي كثيرة أمامه . فقد رغبت ، بجماع قوة نفسي ، ان اتحد مع الشعب ، مؤمنا بكل مايؤمنون به ، ولكنني لم أجد سبيلي الى ذلك . لانني شعرت ان قيامي بمثل هذا العمل يحملني الى الكذب على نفسي ، والهزء بما كنت اقدسه وأجله .

عند هذه النقطة الهامة من الموضوع اقبل الى مساعدتي احداث المفكرين من اللاهوتيين الروسيين

وفي رأي هؤلاء العلماء المحترمين ان عقيدة الايمان الاساسية تنحصر في عصمة الكنيسة . وقبول هذه العقيدة يؤدي بصاحبه الى التسليم بصواب جميع التعاليم التي تعلمها الكنيسة . فالكنيسة التي هي جماعة المؤمنين ، المتحدين برباط المحبة ، والمالكين ناصية المعرفة الحقيقية . اصبحت بعدئذ أساساً لايماني . فقلت في نفسي «ان الحقيقة المقدسة لا يمكن ان يبلغ اليها رجل واحد . ولكن الوصول الى قدس اقداسها مباح لجماعة المؤمنين المتحدين بالمحبة ولذلك وجب علينا قبل الحصول على الحقيقة الا نسير . كل في طريقه . بل ان نتحد بعضنا مع بعض . محتملين بعضنا بعضا ، ومتجنبين كل ما يعمل على شقاقنا وتباعدنا . فالحقيقة تعلن لنا ذاتها بالمحبة فاذا لم نطع أوامر الكنيسة فنحن نقتل المحبة نفسها ، التي لا تظهر الحقيقة بدونها . واذا قتلت المحبة خسرنا جميعاً الوسيلة الواحدة للحصول على معرفة الحق . »

على انني لم استطع في ذلك الوقت ان ارى السفسطة التى في هذا النوع من التفكير المنطق . لم أر اذ ذاك ان الاتحاد بواسطة المحبة قد ينشيء محبة عظمى . ولكنه لا يقدر أن يعطي الناس الحقيقة المقدسة المقررة في كلمات دستور ايمان نيقية ، ولم أر اذ ذاك ان المحبة وحدها لا يمكن ان تقيد المؤمنين بالعمل بأي عقيدة من العقائد . انني لم أر اذ ذاك الخطأ الذي في هذه العقيدة. وانا شاكر عدم رؤيتي وفهمي في ذلك العهد : لانني بسببها تمكنت من قبول جميع طقوس الكنيسة وممارستها ، من غير ان افهم اكثريتها. فقد طالما جاهدت في ذلك الحين انَ اتجنب كل نوع من البحث في مثل هذه المواضيع . وابعدت جهدى عن الاعتراضات . ووقفت كل قوة فكرى على تفسير عقائد الكنيسة بطريقة لا تثير ما كمن في أعماقي من الشكوك الكثيرة .

وفيما أنا على هذه الحال من الخضوع لاوامر الكنيسة كنت اخضع فكرى أيضاً لجميع التقاليد المرعية الاجراء بين عامة الشعب الذى اعيش معه . فاتحدت نفسي مع اسلافي الذين احببتهم . وهم أبي وأمي وجدى وجدتي . فقد عاشوا جميعهم كما عاش اسلافهم . وآمنوا . وكانوا سبباً لوجودى على الارض . وكنت أشارك ملايين الشعب . الذى احترمه واحبه . . بعبادته التى هي رجاؤه الوحيد في الحياة . قد فعلت كل هذا ولم أجد فيه شيئاً رديئاً. لان الردىء في عقيدتي هو الاستسلام لشهوات الجسد . وعند ما كنت انهض

من فراشي عند الصباح لحضور الصلاة كنت اشعر انني أقوم بعمل صالح . واثقا بانه ان لم يكن لي من هذا العمل سوى كبح جماح كبريائي العقلية في سبيل الاتحاد مع اسلافي ومعاصرى لكفى به تعزية لي . وفي سبيل التفتيش عن معنى في حياتي لم اضن بتضحية رفاهية جسدى .

بمثل هذا كنت أفكر ايضاً وأنا أعد نفسي لمناولة الاسرار المقدسة ومطالعة الكتب المقدسة ، والصلاة ، والتقشف ، والمحافظة على الصيامات . ومع تفاهة هذه التضحيات التي كنت أقوم بها فقد فعلتها كلها من أجل غاية مقدسة . فكنت أهيء نفسي بالامساك والصلاة لمناولة جسد الرب ، أصوم ، وأقوم بفروض الصلاة في أوقاتها ، سواء في بيتي أو في الكنيسة . وعند ما كنت أصغى الى الصلوات في الكنيسة كنت أرافق القراء والمرنمين في كل كلمة ، وأفسرها في ذهني بمعنى سام كلما وجدت الى ذلك سبيلا ، أما الكلمات التي كانت تخلب لبي في القداس بنوع خاص ، فأنزلها أشرف مركز من الاهمية في قلبي ، فهي كما يأتي :

« لنحب بعضنا بعضاً بعزم واحد . » وأما الكلمات التي كانت تتبع هذه ، وهي الاعتراف باب وابن وروح قدس ، فكنت أعرض عنها لأنني لم أستطع أن أفهمها .

الفصل الرابع عشر

كان الايمان في ذلك العهد ضروريا جداً لحياتي ، حتى انني أبعدت عن فكري كل اثر للشك او الاعتراض على عقائد الكنيسة.

ولكن هذا التفسير للفروض والطقوس لم يكن ليعمر طويلا في فكري . لان خدمة القداس ، مع انها كانت تزداد وضوحاً في عيني في كل يوم بمبادئها الاساسية ، ومع انني كنت أبذل جهدي في تفسير مثل العبارة الآتية بصورة تبعد الثورة عن فكري — « بعد ذكرنا الكلية القداسة الطاهرة الفائقة البركات المجيدة سيدتنا والدة الاله الدائمة البتولية مريم ، لنودع ذواتنا وبعضنا بعضاً وكل حياتنا المسيح الاله . » ومع انني كنت أفسر كثرة صلاة الكنيسة للقيصر وعياله بانهم معرضون للتجربة اكثر من الجميع . ولذلك كانوا في حاجة الى الصلاة اكثر من الجميع. ومع انني كنت افسر الصلاة : « من أجل اخضاع كل عدو ومحارب تحت اقدامهم ... » بانها صلاة تطلب الغلبة من الله على زعماء الشر . مع انني فعلت كل ذلك للاحتفاظ بايماني . ولكن هذه الصلوات وغيرها.مثل تسبحة الشاروبيم . وجميع الاسرار المحيطة بالخبز والخمر . وعبادة العذراء والقديسين . أو بعبارة أخرى ثلثي الخدمة التى تتلى في القداس . أما انها كانت تظل اسرارا مغلقة لا تفسير لها عندى. أو انها كانت تحملني الى العودة الى شكوكي القديمة . والاعتقاد بانها خرافات

باطلة . أما تسليمي بها فكان بحكم الضرورة يقودني الى الكذب الذي يفصلني عن الله ويقضي على ايماني باسره .

ولم يكن موقفي تجاه الاعياد الرسمية في الكنيسة بافضل من موقفي تجاه الصلوات المار ذكرها . فالمحافظة على السبت بتكريس يوم واحد في الاسبوع للاتحاد مع الله لم تكن بعيدة عن ادراكي كان العيد الاعظم لتذكار القيامة التي لم اقدر ان اتصور حقيقتها ولم استطع ان افهمها . وقد خصص يوم الاحد من كل اسبوع بهذا العيد العظيم . وكان الاحتفال بخدمة سر الشكر يقام فيه ، ولكن هذا السر لم يكن ايدنو من حدود تصوري.أما الاعياد الاثنا عشر الاخرى ، بقطع النظر عن عيد الميلاد فقد كانت جميعها تذكارا للعجائب التي كنت ابذل جهدي في ابعاد فكري عن البحث فيها لئلا اسقط في هاوية النكران . وأهم هذه العجائب الصعود، وحلول الروح القدس يوم الخمسين ، والعماد ، وشفاعة العذراء وغيرها.

في جميع هذه الاعياد كنت اشعر بان الاهمية قد اعطيت لاقل الحوادث اهمية فامسك . أما بالتفاسير التي تهدىء حدة ثورتي الفكرية بالاكثر . أو انني اغمض عيني فلا ارى ما يحملني الى الشك ويحرمني راحتي .

ولكن هذا الشعور كان يتزايد في اعماقي كلما حضرت في حفلة عماد أو حفلة مناولة ما . وهما السران الكبيران المحترمان بالدرجة الاولى من جميع المؤمنين . فما كنت أراه في هاتين الحالتين لم يكن

بعيدا عن الادراك . أو فائقا للعقل . بل كان ظاهراً واضحاً أمام عيني انه وهم أكثر منه حقيقة : ولذلك كنت أجد نفسي بين هاويتين : ـ اما الـكذب أو الانـكار

لن انسى ماحييت الآلام التي شعرت بها في اعماق قلبي عندما تناولت القربان المقدس للمرة الاولى . بعد ان تركته أعواما عديدة فالخدمة والاعتراف . والصلاة كل هذا فهمته وفرحت به لانه فسح لي فرصة جميلة لادراك معنى الحياة . وقد فسرت هذا العمل لنفسي انه تذكار يعيد فكرى الى المسيح . ويعدني للتطهير من الخطيئة واقتبال تعاليم المسيح بكلية قلبي . وهذا التفسير. سواء كان حقيقياً أو مصطنعا فانه لم يزعجني قط. لانني كنت سعيداً جداً ان اواضع ذاتي . واتقدم بقلب منكسر الى كرسي الاعتراف . حيث يقتبل اعترافي كاهن بسيط . وديع . ويشهد على توبتي وطرح أحمال الخطيئة عن كاهل نفسي . نعم كنت اشعر بسعادة عظيمة وانا اتحد بالروح مع آباء الكنيسة الودعاء الذين وضعوا صلواتها الساذجة السعادة التي شاركني فيها على مر الاجيال الذين آمنوا ويؤمنون من اعماق قلوبهم ولذلك لم أجد في عملي شيئاً ينفر منه فـكرى .

ولـكنني عندما تقدمت الى « الباب الملوكي » وطلب الي الـكاهن ان اكرر اعترافي . بان ما انا عازم ان اكله هو نفس جسد المسيح ودمه . شعرت بان قلبي يتمزق في احشائي . لان هذا الطلب على بساطته . كان عظيما جداً على رجل مثلي لم يعرف الايمان سبيله الى قلبه.

انني أقول الآن ان هذا الطالب كان هائلافى نظرى ولكنني لم انظر اليه مثل هذه النظرة فى ذلك الوقت.لان الالم الذى احدثه في قلبي كان داخلياً لا يعبر عنه بالالفاظ . لم يكن لي في ذلك الوقت المركز الذى كان لي فى صبوتي عندما كان كل ما فى الحياة واضحاً في عيني . بل انما جذبني الى الايمان اليأس الذى تولاني بعد فشلي عن الاهتداء الى شيء حقيقي في الحياة بدون الايمان . واذ لم أقدر أن اعرض عن كنزى الجديد لذلك خضعت وسلمت.وقدساعدني على هذا الخضوع شعور اهتديت اليه في نفسي . شعور بوجوب احتقار الذات والاماتة لاجل هذا احتقرت نفسي . واتضعت بفكرى . واكلت الجسد والدم . من غيرأن افكر في أقل مايحملني الى الهزء أو الشك . ولكن هذا كله لم ينقذني من تأثير الشعور الذى كان يؤلمني في أعماقي ولذلك لم اقدم على مثل هذا العمل مرة ثانية .

بيد انني واظبت على المحافظة على طقوس الكنيسة ، ولاازال اؤمن من أعماق قلبي ان الطقوس التي حافظت عليها كانت تمثل الحقيقة تمثيلا جميلا . ولكنه حدث لي اذ ذاك ما هو الان واضح في عيني ولكنه لم يكن واضحاً في حينه

كنت مرة اصغي الى محاضرة القاها راهب من المرسلين الاميين . فتكلم عن الله ، والايمان ، والحياة ، والخلاص ، ففتح لي بكلامه بابا للولوج الى معرفة حقيقة الايمان .

وكنت أسير بين الناس دارساً آرائهم في الحياة والايمان ، فتزداد الحقيقة وضوحاً وظهوراً أمام فكري . مثل هذا حدث لي ايضاً عندما قرأت اخبار الشهداء ، وسير القديسين ، وخطبهم ، ومواعظهم ، ولذلك احببت هذه الكتب كلها واتخذتها رفيقة ملازمة لحياتي . وكان كل ما في هذه الكتب ، ما عدا العجائب المدونة فيها يعلن . لي بصورة جلية حقيقية معنى الحياة . هنالك قرأت حياة مكاريوس العظيم ، والامير ايوساف (قصة بوذا) ومواعظ القديس يوحنا الذهبي الفم ، وقصة المسافر الذي نزل الى البئر ، او الراهب الذي وجد الذهب ، وبطرس العشار . وفي هذه الكتب اطلعت على تاريخ الشهداء ، الذين شهدوا باجمعهم أن الحياة لا تنتهي بالموت ، وفيها قرأت سير الرجال البسطاء الذين لم يعرفوا شيئاً عن عقائد الكنيسة .

ولكنني لم أشرع في الاختلاط مع المتعلمين من المؤمنين ، او في مطالعة كتبهم حتى عاودتني شكوكي ، ورجع الي تمردي واضطرابي فشعرت انني كلما حادثتهم ، او قرأت مؤلفاتهم ، يزداد بعدي عن الحقيقة ودنوي من هوة اليأس والشقاء .

الفصل الخامس عشر

كثيراً ما كنت أحسد الذين لا يقرأون ولا يكتبون من الرهبان الهائمين والمسافرين من مكان الى آخر ، واغبطهم لانهم

لم يتعلموا فان عقائد الايمان ، التي كانت في نظري خرافة مضحكة لم يكن فيها أقل خطأ في نظرهم . ولذلك كانوا قادرين، بملء السهولة على قبولها باجمعها ، والايمان بنفس الحقيقة التي كنت انا أؤمن بها أما أنا ، المتعلم الشقي ، فكنت أعتقد ان الحقيقة التي أعبدها قد ربطت بخيوط رفيعة جداً من الخرافة والضلال ، ولذلك لم استطع ان أقبلها بتلك الصورة .

على هذه الحالة عشت ثلاث سنوات وعندما بدأت ، كمن ارتد حديثاً من الكفر الى الايمان ، أدنو من الحق شيئاً فشيئاً ، واتقرب بقوة الغريزة الداخلية متلمساً طريقي الى النور ، لم تكن هذه العقبات لتثنيني عن عزمي . وكلما كنت أفشل عن ادراك شيء مما أراه كنت أقول في نفسي : « أنا خاطىء وشرير ، والذنب في عدم أدراكي هو ذنبي دون سواي . » ولكن نموي في معرفة روح الحق الذي كنت أدرسه كان يقوي بصيرتي لارى ان هذه الروح هي أساس لا يقوم صرح الحياة بدونه وان هذه العقبات الموضوعة أمامها تحول الناس عن الحق ، وتبالغ في فصل ما أدركه عما لا أدركه . ولكن ما لم أستطع ان أفهمه بعقلي كنت أفهمه بواسطة الكذب على نفسي

وعلى رغم كل شكوكي وآلامي ما زلت متمسكا بالارثوذكسية ولكن آرائي أثارت قضايا جديدة ، وحب البحث فيها والحكم بخطأها أو صوابها بصورة رسمية من الكنيسة . والقرار الذي أصدرته الكنيسة أخيراً في هذه القضايات ، القرار الذي جاء

مخالفاً للايمان الذي كنت أعيش به ، اضطرني اخيراً ان أعرض عن كل شركة معها .

واول هذه القضايا التي اوجبت انفصالي هي علاقة الكنيسة الارثوذكسية مع بقية الكنائس المسيحية : كالكنيسة الكاثوليكية، والكنائس المعروفة باسم المنشقين . فان شغفي العظيم بالايمان المسيحي في ذلك العهد قادني الى التعرف باساتذة كثيرين ، من طوائف متعددة ، كالكاثوليك والبروتستانت ، والمؤمنين القدماء وشاربي الحليب ، (الذين لا يؤمنون بالصيام) ، وغيرهم ، وقد وجدت بينهم كثيرين من المؤمنين المخلصين في ايمانهم ، العائشين بموجب اسمى التعاليم الادبية . فرغبت بكليتي في ان اكون اخاً لهؤلاء الرجال ، ولكن ماذا كانت النتيجة ؟

ان العقائد التي خيل اليّ انها تعدني بوحدة جميع الناس بايمان واحد ، ومحبة واحدة ، هذه العقائد ، بشخص افضل ممثليها واعظمهم ، أخبرتني ان جميع هؤلاء الناس يعيشون في الكذب والضلال ، وان مقدرتهم على الحياة انما هي مستمدة من تجربة الشيطان ، واننا نحن وحدنا قادرون دون جميع الناس على معرفة الحق .

ومما رأيته في درسي ان اعضاء الكنيسة الارثوذكسية في بلادي يعتبرون جميع الذين لا يعترفون بايمانهم هراطقة ، كما ان الكاثوليك وغيرهم من الطوائف المسيحية ينظرون الى عقيدتنا الارثوذكسية نظرتهم الى هرطقة ورأيت أيضاً ان الارثوذكسية

تعتبر جميع الذين لا يحافظون على نفس الطقوس الخارجية، والفرائض المتعلقة بالايمان كما تحافظ هي عليها ، تعتبر جميع هؤلاء اعداء لها ، وان رغب بعض ابنائها في اخفاء هذه الحقيقة احيانا. ولكن هذه الحقيقة ظاهرة : اولا لان ادعائي انك تعيش في الكذب ، واني انا دونك اعيش في الحق ، هو اعظم اهانة يستطيع الانسان ان يوجهها الي اخيه الانسان ، ثانياً ، لان الرجل الذي يحب اولاده واخوته لا يستطيع ان يتعامى عن عداوة الذين يسعون الى رد اخوته واولاده من الحق الى الكذب . وفوق هذا فان هذه العداوة تزداد كلما تعمق الانسان في درس العقائد الخصوصية التي يتمسك بها كل فريق . ولذلك وجدت نفسي ، وأنا الرجل الذي يعتقد من صميم قلبه بان الايمان لا يوجد الا في المحبة المتبادلة المتحدة ، نعم وجدتني مضطراً على رغمي ان ارى ان عقائد الايمان تعطل الغاية الوحيدة التي يجب ان تحييها وتنعشها ،

وانما تظهر هذه العداوة بأتم وضوح لمن يعيش مثلنا في بلاد تعددت مذاهبها، ويرى الاحتقار المعيب، وسوء المعاملة، والاضطهاد، الذي يوجهه الكاثوليك للبروتستانت ، والارثوذكس ، فيقابله الارثوذكس بافظع منه للكاثوليك والبروتستانت ، ثم لا يبرح الاخيرون ان ينتقموا من الاثنين معاً بشر من فعلهم . ومثل هذا يتناول في الغالب في بقية المذاهب الاخرى .

كل هذه الحوادث تزعجنا لاول وهلة فلا نصدقها ولذلك نسأل ذواتنا ما يأتي :

« لا يمكن ان يكون الامر شديداً لهذه الدرجة ومع هذا فان هؤلاء الرجال لم يعرفوا بعد انه اذا تناقضت قضيتان فانه يستحيل ان يكون في جانب كل منهما الحق الذي يجب ان يبنى عليه الايمان . ولا شك ان هنالك سبباً لهذا ومنه تتضح الحقيقة »

قد خطر لي مثل هذا في بداءة الامر ، ولذلك عمدت الى مطالعة كل ما كتب في الموضوع وفاوضت جميع العلماء الذين استطعت مفاوضتهم ، ولكن النتيجة الاخيرة التي وصلت اليها تعبر عنها كلمات قليلة : « كل يغني على ليلاه . »

فقد اخبرني نخبة رجال الدين ، من جميع الطوائف والملل ، ان ديانة كل منهم هي الحقيقة وديانة الاخرين ضلال مبين ، وان كل ما يقدرون ان يصنعوه مع غير التابعين لديانتهم ينحصر في الصلاة من اجل ارتدادهم من الضلال الى الحق . ذهبت الى خيرة العلماء ، من الاساقفة ، والكهنة ، والمتقدمين في الرتب الدينية ، والرهبان والنساك وسألتهم : ولكنني لم اجد بينهم من يستطيع ان يفسر لي الداعي لهذه العداوة . ولكن رجلا واحداً من بين الجميع اوضح لي كل شيء فكان ايضاحه كافياً لحملي على عدم تقديم مثل هذا السؤال لاحد غيره .

ان السؤال الذي يواجه كل كافر . او بالحري غير مؤمن ،

يرتد الى الايمان اليوم ، (وفي عقيدتي ان جميع النشء الحديث داخل في هذا الصف) ، هو : لماذا يوجد الحق في الكنيسة الارثوذكسية مثلا ولا يوجد في الكنيسة اللوثرية أو الكاثوليكية ؟ لان الغير المؤمن يتعلم في مدرسته ، ولا يستطيع الا ان يعرف ما يجهله الفلاح الساذج ، ان البروتستانت والكاثوليك يؤيدون ايمانهم ويؤكدون انه هو الايمان الحقيقي وحده .

البراهين التاريخية التي تصبغها كل طائفة بصبغتها الرسمية ، لا يمكن ان تكون مرجعاً للحكم بين الطوائف. أفليس من الممكن والحالة هذه ان تنشأ معرفة سامية من اضمحلال هذه الفروق التي تضمحل شيئاً فشيئاً في اذهان المؤمنين المخلصين ؟ افلا نقدر ان نسير مع المؤمنين القدماء على نفس الطريق التي بدأنا سيرنا عليها معاً ؟ فهم يثبتون لنا ان الطريقة التي نرسم بها الصليب على وجوهنا ، ونرنم بها تسبحة هللويا ، ونمشي بها حول المذبح ليست كطريقتهم، ونحن نقول لهم :ـ

« انتم تؤمنون بدستور الايمان النيقاوي ، وبالاسرار السبعة . ونحن أيضاً نؤمن بها فاحتفظوا بهذا كله. وما تبقى فلكم ان تتصرفوا به كما تشاؤون .

حينئذ نستطيع ان نتحد معهم على هذه الصورة : اننا معا نقدم المهم من قضايا الايمان على غير المهم . وأيضاً اقول الا نستطيع ان نقول للكاثوليك ؟

« انتم تؤمنون بهذا ، وبذاك ، وبين ما تؤمنون به قضايا

جوهرية هامة . اما القضايا التي يقوم عليها الخلاف مثل انبثاق الروح القدس ، وعصمة البابا فافعلوا بها ما تشاؤون . »

الا نستطيع ان نقول مثل هذا للبروتستنتي ونتحد معه في القضايا الجوهرية ؟

وقد وافق على هذا نخبة من رجال الدين الذين فاوضتهم في الامر ، ولكنهم زادوا على موافقتهم قولهم : «ان مثل هذه الاراء تحمل الناس على القول بان الاكليروس قد انفصلوا عن ايمان ابائهم وانضموا الى الانشقاق في حين ان مركز الجالسين على الكراسي في الكنيسة يقضي عليهم بالمحافظة على نقاوة ايمان الكنيسة الارثوذكسية الروسية كما تسلمته من اسلافنا القدماء . »

حينئذ ادركت جلية الامر . أنا افتش عن الايمان الذي هو عكاز الحياة وقوتها ، ولكن هؤلاء الناس يفتشون عن خير الوسائل التي تمكنهم من القيام بواجبات بشرية (يبيضون فيها وجوههم) امام الشعب ويحفظون سلطانهم وسيادتهم على الناس. ومنها اكثروا من الكلام في اظهار شفقتهم على اغلاط اخوانهم ، والصلاة من اجلهم امام عرش الله لكي يردهم ويهديهم ، فان مصالح الناس لا تقوم الا بالقوة ، ولذلك كانت القوة ، وهي الآن وستظل في المستقبل ، آلة في يد الاسياد للبلوغ الى ما يريدون

اذا كان لنا طائفتان واعتقدت كل منهما ان الحق في جانبها . وان ايمان الاخرى كاذب ، فهما تعلمان كل واحدة عقائدها رجاء

ان ترد اليها اخوتها الاخرين الى الحق . واذا تجاسر احد ان يعلم عقائد كاذبة لابناء الكنيسة الغير المجربين في العالم ، الثابتين في معتقدهم القديم ، فان هذه الكنيسة تجد نفسها مضطرة الى حرق الكتب المحتوية على العقائد الجديدة ونفي الرجل الذي افسد اذهان ابنائها . ماذا يجب ان يعمل بالرجل الهرطوقي ، الذي اندفع بغيرته على ايمانه الى تعليم شبيبة الكنيسة الاخرى وحكمت عليه انه مفسد لاذهان ابنائها ؟

ما الذي يستحقه مثل هذا الرجل غير ان يقطع رأسه او يودع في السجن ؟ كان الناس في ايام الكسيس ميخايلوفتش يحرقون بالنار ، او بعبارة اخرى كان قصاصهم صارماً فظيعاً بسبب ايمانهم المخالف لايمان الملك . ومثل هؤلاء لايزالون معرضين للاضطهاد والقصاص الصارم المعروف اليوم وهو النفي المؤبد . وعندما نظرت حوالي ورأيت كل ما كان يجري باسم الدين من الفظائع سرى الرعب في جميع مفاصلي ، ولذلك انسحبت من الكنيسة .

والنقطة الثانية التي كانت تربط علاقات الكنيسة بقضايا الحياة هي الصلة التي بين الكنيسة والحرب والقتل . فقد كانت روسيا في هذا العهد منخرطة في حرب ، وكان الروسيون ، باسم المحبة المسيحية ، يقتلون اخوتهم في الانسانية . ان عدم التفكير في هذا العمل الفظيع مستحيل عليّ . ومثله عدم التصريح بان القتل جريمة كبرى في نظر جميع الاديان . ولكن الناس على رغم هذه الحقيقة

كانوا يصلون في الكنائس من اجل نصر جيوشنا ، وزعماء الكنيسة كانوا يقبلون كل جرائم القتل هذه كأنها نتائج لا بد منها للمحافظة على الايمان . ولم يكن القتل في الحرب وحده مقبولا في الكنيسة ، بل كان قتل المتمردين والثائرين من الشبان على التقاليد الرثة البالية محرما في نظر اكثرية من عرفت من اعضاء الكنيسة ومعلميها ورهبانها ونساكها . ولذلك نظرت الى كل ما يجري حوالي من الحوادث الفظيعة التي كان يقوم بها رجال يدعون المسيحية فارتعدت في أعماق قلبي .

الفصل السادس عشر

من ذلك الحين فارقتني شكوكي ، وثبت لدي ان ما رأيته في عقائد الايمان الذي أعتنقته لم يكن كله حقيقياً . ولو كان ما رأيته في عهد ايماني سابقاً لهذا العهد ، اي لو رأيت كل هذا قبل ايماني لما ترددت على الحكم بخطأه كله ، ولكنني لا أستطيع ان أحكم حكماً مثل هذا اليوم

كان الشعب بمجموعه يعرف الايمان ولم يكن هذا بالامر الذي يحتاج الى برهان ، لانهم لولا ايمانهم لما استطاعوا ان يعيشوا وكانت معرفة الايمان هذه مباحة لي أيضاً ، لانني كنت أعيش بها وأشعر بقوتها ولكن هذه المعرفة نفسها لم تخلُ من الخطأ . قد عرفت هذا بنفسي

ولم أشك في صحته قط . وكل ما كان يحملني الى الثورة في ما مضى صار في نظري اليوم يدنو مني أوفر أشراقا وهدوءاً من قبل . ومع انني لم أعد أجد من الخطأ في ايمان الشعب بمقدار ما في ايمان زعماء الكنيسة فقد رأيت أخيراً ان غير الحقيقي في ايمان الشعب ممتزج بالحقيقي .

فمن اين اذن هذا الحق وهذا الضلال في ايمان الشعب ؟ أنهما ولا شك قد وصلا للشعب مما نسميه بالكنيسة . لان هذا الحق وهذا الضلال ممتزجان معاً في التقاليد المعروفة بالتقاليد والكتابات المقدسة .

ولذلك وجدتني مضطراً ، شئت أم أبيت ، ان أدرس هذه الكتابات والتقاليد درساً مستوفياً ، مما كنت أتجنبه واخافه قبلا . فاقبلت بكليتي أدرس علم اللاهوت ، الذي كنت طرحته عني قبل ذلك الوقت معتقداً بعدم فائدته ، ومحتقراً الذي يضيع أيامه بدرسه فقد اعتقدت في ما مضى أن علم اللاهوت سخافة لا معنى لها ولا فائدة من درسها ، وكنت أعيش بين مظاهر الحياة الواضحة في عيني والممتلئة بالمعاني السامية في عقيدتي . ومع أنني الآن يجب أن أفرح بالاعراض عن مواضيع لا شأن للعقل الصحيح بدرسها ولكن هذا فوق طاقتي .

على هذا الاساس العقائدي ، أو على الاقل بمساعدته ، بنيت صرح تفسيري الوحيد والاخير لمعنى الحياة التي اهتديت اليها أخيراً

ومهما بدأ الامر غريباً على آرائي العقلية القديمة التي مارستها زمناً طويلاً فهو الرجاء الوحيد بالخلاص من الشقاء ولكي يكون هذا مفهوماً يجب أن يفحص بتدقيق وتحفظ مع أنه لا يمكن أن تكون نتيجته شبيهة بنتائج البحث العلمي . لان معرفتي للمواضيع الدينية والمباحث اللاهوتية تجعل ترقب البلوغ الى نتائج فيها شبيهة بنتائج المباحث العلمية أمراً مستحيلاً .

لاجل هذا لم أسع الى تفسير كل شيء . لانني عرفت أن تفسير الكل كان كبداية كل شيء مخفياً في قلب الغير المحدود ولكنني رغبت في بلوغ المحجة التي تبدأ عندها غير المدركات . ولكن رغبتي في ان يظل غير المدرك كما هو ، لم تكن نتيجة لضعف في القوة الفكرية او قصور في الادراك ، (لان القوة الفكرية التي ساعدتني على عملي كانت صحيحة سليمة وبدونها لم أقدر أن أفهم شيئاً) ، وانما كانت رغبتي هذه نتيجة لمعرفتي للحدود التي ينتهي عندها فكري . اجل رغبت من صميم قلبي في أن أدرس الامور بنفسي - أصل الى غير المدرك فارى وافهم أنه غير مدرك وأرجع عنه من تلقاء ذاتي ، وليس لان الرجوع عنه جرس ايماني محتوم علي أن أعمل به من غير درس ولا بحث

وما لاشك فيه أن العقائد كانت تحتوي على الكثير مما هو حق ، ولكنها كانت أيضاً بدون أقل ريب تحتوي على الكثير مما هو غير حق . ولذلك رأيتني مضطراً إن أفتش عما هو حق ،

وعما هو غير حق ، وأفصل أحدهما عن الآخر . وقد قمت بعملي بعد الدرس والتعب الكثير . أما ما وجدته من الحق وما وجدته من غير الحق وغير ذلك من النتائج التي أوصلني درسي للدين والعلوم اللاهوتية والعقائدية فقد دونته في كتاب خاص ليكون جزءاً تابعاً لهذا الاعتراف فاذا وجده العالم ذا قيمة نافعة للناس فانه قد يطبع يوماً من الايام .

انتهى كتاب اعتراف تولستوي

تباع الكتب الآتية في مكتبة العرب بالفجالة بمصر

ص	
٨	النهج القويم في تاريخ شعوب الشرق القديم طبع بيروت
٤	تربية الارانب بالصيف والشتاء
٥	زراعة الكتان بمصر
٨	تحرير المرأة لقاسم أمين
٨	تهذيب الاخلاق لابن مسكويه
٥	حديث القمر لمصطفى الرافعي
٦	الدروز والثورة السورية لكريم ثابت
١٠	تذكرة الكاتب لاسعد داغر
٦٠	نزهة الجليس ومنية الاديب الانيس وهي رحلة كبيرة في بلاد العرب للموسوي جزآن
٣٠	قصة فيروزشاه ٤ مجلدات
٥	نوادر جحا الكبرى بالصور
٦٠	كنز الرغائب في منتخبات الجوائب خمسة اجزاء تأليف احمد فارس الشدياق

ص	
٦	تطورات الزراعة وارتقائها
٣	الرقص العصري تعريفات عنه
٥	سعادة الشبان في طهارة الابدان
٥	في سبيل الاستقلال مصر وانجلترا
٢٠	مشهد العيان في حوادث سنة ١٨٦٠ بلبنان للدكتور مشاقة
٣	نوادر الادباء
١٥	هداية الاطفال لحسن توفيق
٥	خواطر في التربية
٢٠	شرح ادب الدنيا والدين طبع الاستانة
١٢	كتاب الارواح لطنطاوي جوهري
٣٥	وفاء الوفاء في اخبار دار المصطفى جزآن
١٢	الالفاظ الكتابية للهمذاني
٤٠	قصة حمزة البهلوان اربعة اجزاء
٤٠	قصة الملك سيف اربعة اجزاء
٤٠	قصة الف ليلة وليلة اربعة اجزاء